رواية

إيهاب مصطفى

صك الغفران

fb/mashro3pdf

إيهاب مصطفى

صكّ الغُفران

رواية

fb/mashro3pdf

الكتـــــــاب: **صك الغفران**

المـــؤلـــــف: **إيهاب مصطفي**

تصميم الغــلاف: **مروة فتحي**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقـــم الإيـــداع: 2015 / 1961

الترقيــم الدولــي: 3 - 067 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223952354 - **موبايل:** 01142050403

الموقع الالكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الالكتروني: info@ibda3-tp.com

fb/mashro3pdf

إيهاب مصطفى

صكّ الغُفران

رواية

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الإهداء

إلى أبي.....

أنا زيّ ما انت بتشوفني

fb/mashro3pdf

" الحبُّ هُو جوازُ السفرِ الذي يعبرُ به الإنسانُ كلَّ أبوابَ السَّماءِ دونَ عائقٍ"

القديس يُوحنا ذهبي الفم

fb/mashro3pdf

١

ممسكا كنت ب "الرَّولة" الدائرية، أمُر على الجدران البيضاء، تتحول تدريجيًا إلى السماوي الفاتح، تنزلق "الرَّولة" وتفرغ حياتها على السطح، أغوص بها في "الجردل" المملوء بمادة "البلاستيك"، تخرج مفعمة بالحيوية مرةً أخرى، بنهاية الجدار ما ينقص إلا بعض النجوم، وقمرًا منيرًا لترى سماءً ثانية، تشكل جزءًا من أديم السماء الأم بالأعلى، اللون السماوي شاذ في النجع، ويبقى الأحمر والأخضر سيدا الألوان.

- لقد أنهيت ما بيدي ياعبد الله.

كان ذلك صوت ناجح مساعدي، مع أنه يدخن السجائر التي أكرهها وأقول عنها حرام وخلافه، لكنه مساعد بارع، فاهم لعمله، وأعتقد أنه وقت قليل حتى يصبح مُلمًا بأبعاد المهنة.

-وأنا أيضا يا ناجح .

أنهيت تلوين الجدار بسرعة، تركت الرَّولة لناجح ليغسلها كيفما علمته

fb/mashro3pdf

من قبل، بدّلت ملابسى بينما - هو- منهمك في غسل السكاكين والرُّولة والفرشاة، بمجرد انتهائه أغلقنا الأنوار ونزلنا، شارع الترعة في هذا الوقت -بعد العصر -يكون مملوءًا بالنسيم الفارد أجنحته على العالم، يطوف الانحاء ويعبئ الدنيا بالهواء المنعش، يصلنا الصوت البعيد لماكينات الري، الريح تمرق بين شواشي النخيل فتتمايل كأنها مبسوطة بالعالم، شواشي النخيل وشواشي الذرة وحركة سطح الماء المتماوج وحركة أجنحة الطيور بالأعلى، العالم كله كان يرقص.

لم أكن أعمل بالدهانات من قبل، كانت الدهانات ضرورة ملحة أفرزتها عجلة التطور، والتي تدهس من يظل على قديم حاله، بالطبع كنت أحاول مسايرة ذلك التطور، بل الركوض أمام عجلته الدوَّارة بنفس الإتجاه، لا أنكر أنني استفدت كثيرًا من خلط الألون ومعرفتها والوقوف على بعض أسرارها، عرفت أن الناس عبارة عن ألوان تمشي على الأرض، يكفي أن تعرف اللون حتى تفهم صاحبه، أو تعرف صاحبه حتى تفهم ماذا يحتاج من ألوان في بيته، نحن خُلقنا لنستخرج ما بعقول الآخرين من بهجة، إن كانوا هم - حتى - لا يعرفون مكمنها، بمجرد حديثي مع الرجل أحاول الغوص من خلاله بعمقه، وأستخرج منه ما يعينني على إنهاء مهمتي بلا مشاكل، اللون شريحة من حياة لا يمكن إهماله، وهناك أساسيات لا بد من معرفتها، فالبسطاء من الناس يطلبون الألوان الخفيفة "الأوف وايت" لصفائهم العقلي وتصالحهم مع دواخلهم، أما الذين يحتاجون البهرجة والزخرفة فربما نشأتهم لها دور وسط الألوان الكثيرة، والتى شكلت جزءًا من وعيهم، أما من

fb/mashro3pdf

يتركني وهو لا يعرف ماذا يريد من لون ببيته، فأعرف أنه متذبذب، من النوع الذي يختار لأن وجوده غير مؤثر بالعالم، هذا النوع هو من يرسل أمه لرؤية بنت ما فإن أعجبتها أعجبته، وهو المنساق بحديث الآخرين، وهو الذي لا يريد شيئا سوى العيش بهدوء. أذكر يومًا أن أحدهم طلب مني دهان حجرته بالكامل باللون الأحمر الفاقع، لم أقبل وعرفت أنه إما أن يكون ملوثًا من الداخل، أو أنه معبأ بالألم، أنا عن نفسى لا أعرف ماذا سأختار في بيتي من ألوان، ولكن – بالطبع - لا ينطبق على ما وصفته، ربما لأن كثيرًا من الناس ليسوا مثلي، وربما لا يوجد أحدٌ في العالم كله مثلي.

أنا وحيد في هذا العالم، أنا الشقى والمتعب والمعذّب، حالة خاصة ربما لا ينجبها العالم كل عصر كامل، وربما لا ينجبها على الإطلاق، حالة لا تمر مرور الكرام بغير قلق من المفترض أن يقلق نومي، ويبعثر راحتي على كفوف التعب، "ماتيلدا" أختي وليست أختي، "مارية" أمي وليست أمي، معي أخ وحيد، وهو مسافر إلى ليبيا كعادته، معي خطيبتي التي تعذبني أكثر من الجميع، كل شيء في العالم يحتمل الوجهين بالنسبة لي، أنا أحيا لكني لا أحيا كباقي الناس، مجرد مواقف تشكلت لتمنحني تعاسة مجانية وأبدية، وشقاءً أراه في عيون من حولي، بل في عيون أخي قبلهم.

سبحان الله، في نجعنا يؤمنون بمعرفتهم بجهلك، ويعاقبونك على جهلك، يؤمنون بمعرفتهم بقصر يدك وعدم امتلاكك لزمام أمرك، ويعاقبونك على قصر يدك وعلى عدم امتلاكك لزمام أمرك، فمنذ

fb/mashro3pdf

زمن بعيد بدأت مأساتي.

fb/mashro3pdf

٢

هل عوقبت - من قبل - على خطأ ارتكبه غيرك؟ وغيرك الذى ارتكب الخطأ هو نفسه من يعاقبك؟!..لم يكن خطأي حين قالوا لأمي أنها حُبلى وهى في الخمسين من عمرها، ما الذنب الذي ارتكبته حتى أنال عقابا ليس لي يدٌ فيه؟!!.

العيال كانت تتسابق من ظهر أبي إلى رحم أمي، يتفاجئون بحراس الأم، يقفون كمتاريس ضخمة على بوابة الرحم، حراس عماليق يقفون في شموخ بغير رهبة ولا خوف، تتقدم قوات أبي المدربة على المراوغة وفنون الحرب، يرفع العماليق دروع كبيرة مجهزة لأى هجوم محتمل، دائمًا حراس الأم في حالة استعداد، يعرفون اليوم الذي تأتي فيه الحروب، تسيل المياه بجوارهم، ويشمون رائحة العرق الكثيف، يروْن ذلك الكائن العملاق، يحتك بالجدران اللينة من حوله، يرجع ويجيء مندفعًا كوحش، يحمر ويتوهج كأنه سيشتعل، عند هذه اللحظة يرفع حراس البوابة لدروعهم، وأخيرًا...

fb/mashro3pdf

يقذف ذلك الكائن بالجيوش إليهم، ملايين الجند منهم الضعيف والقوي والمرن، بالطبع لا تصل كل الجيوش، فالضعيف يموت في الطريق بنبلٍ حقيقي، لكي يعبر باقي الإخوة عليه، عدد مهول لا يمكن حصره، وتشتعل المعارك بين العماليق وجيوش الأب، كائنات الأب تلف وتدور، ولكن تحاوطها قوات الأم الماهرة في التصدي للتكتلات الهجومية، ويتحول الفضاء إلى مجزرة كبيرة، وترتمي الجثث على مساحات واسعة. هل كنت ماهرًا لتلك الدرجة التي جعلتني أراوغ عماليق الأم؟، أم أن إخوتي هم الذين فطنوا إلى أن كل معاركهم تخسر، لأنهم لا يعملون تحت إمْرَة زعيم؟، كنت أعرف أن كل المعارك التي بلا زعيم تخسر، ولأنني كنت القوي، وكنت المراوغ، وكنت الزعيم، فقد حملني إخوتي بنبل حقيقي، والعماليق لم يقوموا بواجبهم كما لو أنهم قد شاخوا، أو أنهكتهم الحروب الكثيرة، المهم أنني نجحت في الإفلات منهم، تسلقت الأسوار المرتفعة بمهارة، نزلت على الجانب الآخر، وجدت ذلك البصيص من النور، تتبعته ودخلت عبر بوابة وسيعة، ورأيت الملكة في انتظار انتصار محتمل لأحدهم، دخلت وأغلقت الباب ورائي، كنت أود الالتفات إلى إخوتي، لكي أريهم نصرهم الذي تشكل بدخولي، لكني سمعت صيحاتهم تعلن عن هزيمة حتميّة للعماليق.

رحت إلى الملكة التي فردت ذراعيها واحتضنتني، ذبنا في بعضينا لنشكل وجودًا واحدًا، كائنًا بملامح ذكورية، لبدْت بغير صوت أو برهان يشير إلى وجودي بأصابع الانتفاخ، كبرت وضاقت الدنيا من حولي، لم أجد بُدًا من ضرب الجدران اللينة لتتسع، المسافات تضيق، والدنيا لا

fb/mashro3pdf

تتسع بحجم اتساعي، لكني ضغطت عليها، رحت أملؤني في الفراغات، ارتحت تمامًا ورحت أكبر بهدوء، لم تعرف الأم أنها حبلى إلا حين رأت بطنها يأخذ حيزًا أكبر من الفراغ حولها، إذن فوجودي لم يكن مخططًا له من قِبَل الأب، بمعنى أنه كان خائنًا لنا، يرسل كل قواته، وهو يعرف مسبقًا بهزيمتهم الحتمية، بل إنه كان يفرح لهزيمتنا، غضبت جدًّا حين عرفت أن انتصاري كان محض صدفة، أو يمكنني القول أنه كان تجسيدًا للإرادة الإلهية التي تمثلت في هزيمة غير مرجوَّة لعماليق الأم، ما أدهشني فعلاً هو ثورة أبي حين علم بانتصاري وتكوري بطريقة لا يعرفها في بطن الأم، زعق بقوة، وأمي لطمت خديها وشقَّت جلبابها، أمرها بأن تنزلني بعد شبه اكتمال لم يكن يحبه، لكنني عافرت، وهبني الله حبْلاً قويًّا من سمائه فأمسكته بقوة، تحملت الرضوض والكدمات بصبر أحسد عليه، فشلتْ كل محاولات الأم في نزولي بغير رضاي، تضايقت جدًّا لدرجة أنني ضربت بطن الأم في تحدٍّ صارخ لأبي.

كانت بطنها على عكسها تمامًا، وعلى عكس حراس بوابتها، طَيّعَة ولينة وتقبل كل ما آمرها به، راحت البطن تتسع لى بقدر ما أحتاج، ومع اتساعها تزداد ثورة أبي، تزداد الرجرجة -- التي أكرهها- من حولي، كان أبي يخاف كلام الناس، فالمعنى حراب ستنغرز في جسمه المكشوف بلا دروع، وجاء ذلك اليوم حين اكتملت تماما، خبطت على الكيس المليء بالماء، والذي كنت أنام عليه، ركلته بقوة فانفتح، هرب الماء إلى الساحة التي كانت تشتعل حروبًا قبل دخولي، صرخت أمى "وجيدة" فجاءت الداية، صرخت مرة أخرى فجاءت أمي

fb/mashro3pdf

"مارية"، حفر أخي "سليم" حفرةً كبيرةً في سقيفة البيت، وضعت الداية ماجورين مصنوعين من الفخار على حافتي الحفرة باتجاهين متقابلين، وسندت قدمي أمي على الماجورين العريضين، ووضعت عجيزتها على حافة الحفرة من الأمام، الداية قالت:

- "الحمد لله الهادى طش".

جاءت "خديجة" جارتنا، قالت لها الداية أن تشعل شمعة وتضع عليها السكين حتى تبقى حافتها مثل الجمر، وقالت لأمي "مارية" أن تدلك ظهر أمي "وجيدة"، قالت الداية "إدفعي بقوة"، حاولت أمي جمع قوة غير موجودة للدفع، أمي دفعها قليل، وبصرها كليل، وشعرها أحمر من أثر الحناء التي تصبغه بها، لون عيني أمي أصبح مثل لون شعرها، أنفاسها تتلاحق بقوة، صدرها يعلو ويهبط ولا تقدر على التحكم فيه، عينا أمي "وجيدة" يسيل منهما الماء، أمي "مارية" تدلك لها ظهرها، الداية تقطع لحم أمي "وجيدة "بظفرها الحاد، أمي تصرخ بقوة ضعيفة، جسمها يفتح عيونا صغيرة يتدفق منها الماء الكثير، أمي تصرخ وبكائي أنا يظهر، ترفعني الداية، مخاض أمي ينزل في الحفرة، "خديجة" ناولت السكين "المُجَحْمِرة" للداية، لفّت خيطا أبيض مرات كثيرة على أول حبلي، والذي كان يمسكني بسماء الأم، قطعت بالسكين قبل الخيط، وكوت سرتي بسن السكين، وكبستها بالكحل.

رفعتني الداية من قدمي إلى الأعلى، أمي تمددت على ظهرها، أمي "مارية" وجارتنا "خديجة" تهزان جسد أمي "وجيدة"، لكنَّ فمها بقيَ

fb/mashro3pdf

مفتوحًا، وعينيها جافتين، وجسمها ملونا بالأزرق الشاحب، صرخت أمي "مارية"، و"خديجة"، والداية، وكنت أصرخ معهم، كانوا يبكون وهم يغسلونها، وكنت أبكي وهم يَغسلونني، كانوا يصرخون لموتها، وكنت أصرخ لميلادي، كنت أنا لعنتها، أمي "مارية" مسحت جسمي ولم تجد رداءً تلفني به، جعلت "خديجة" تمسكني ورمحت إلى بيتها، وجاءت بلفافة ناعمة مرسوم عليها صليب كبير.

- جسمه كان كبيرًا كأنه كان يقصد موتها.

هذا ما قالته الداية عني، أخي لم يسامحني، وتحولت رغمًا عني إلى فرشاة من حزن، ألوِّن الوجوه التي تراني، شكلت لأخي وأبي تذكارًا مجانيًا ليوم موت الأم، كنت سببًا مباشرًا لتكوم الجيوش في ظهر أبي، راح يقترح على أخي أن يتزوج بواحدة ترعاه وترعى "ابن الكلب" الذي هو أنا.

ومن تلك التي تقبل برجل يكاد يتجاوز الستين؟ ومعه ابنٌ كبير سيحتاجان حتمًا إلى غسيل وطبيخ وعجين وخبيز، ومعهما مصيبة كبيرة هي أنا، وتعبي يوازي كل ما سبق، كنت أحمل على جسدي الصغير كل أسباب التعاسة من موت أم، وكره أخ، ولعنة أب، كان أبي يستقبلني ببصاق كبير يسيل على وجهي الصغير، وكنت أضحك وأطوح يديّ في الهواء، وأتجاهل بصاقه كأنه مادة للتعارف بيننا، أحيانا يرفسني في بطني فأبكي، وأحيانا يلين فيحتضنني ثم يتذكر الأم وتعبه فيفلتني ويبصق على وجهي مرة أخرى، هذا ما قاله لي أخي، وكنت أضحك

fb/mashro3pdf

في عز لحظات الزعل، كأني أغيظهم بوجودي، كنت فرحًا بمجيئي إلى هذا العالم، غير مكترث لانفعالاتهم، كانت لي ضحكة رنانة كثيرًا ما أبدلها أبي بكاءً بزعيقه.

نشأت في بيت غير مرحب بوجودي، كنت أعاني عقابًا جماعيًّا لأني أتنفس بغير إرادتهم، كان بكائي هو عقاب ورد فعل لفعل هو موت الأم، ذلك كان خطأي الكبير، انتصاري على عماليق الأم كان هو الهزيمة لي مستقبلا، أخي لا يعرف إلا الببرونة المليئة بلبن يشتريه من الجيران نهارًا، والببرونة المملوءة بالماء الدافئ المخلوط بالسكر ليلاً، أبي لم يكن يلتفت لبكائي ودائما ما كان يصرخ.

- اسكت يا ابن الكلب.

لو أنني وقعت مهزومًا قدَّام العماليق لكنت الآن مرتاحًا، ولو أنني تركت حبل سمائي ونزلت قبل اكتمالي لكنت الآن مرتاحًا، ولو أنني مت بديلاً عن الأم لكنت الآن مرتاحًا، لكنني كنت مُصرًا على الحياة بشكل غريب، أدهشني أنا قبلهم، كنت أعاندهم وأنتقم منهم بشهيقي وزفيري، كيف لا أقبل الموت!؟، مع أن الموت وقتها كان يمثل – لي- هدية مجانية، وراحة أبدية لتعب غير معلوم، وياليتني مت وأرحتهم واسترحت من مكابدة حياة بائسة، وأيُّ شيء أتعس من حياة تعاقب فيها واهبك الحياة نفسها بالموت، وكأنني كنت مُصرًّا على إكمال المغامرة التي ما أعرف نهاية لها، وما عرفت إلى الآن، لكني أتعشم أن تكون قريبة حتى أريح روحي من السفر والعودة بغير فائدة.

لا أحد يجعلني صابرًا وقويًا وفارسًا نبيلاً إلا "ماتيلدا" وأمي "مارية"،

fb/mashro3pdf

المهم أنني كبرت قليلا لأبقى سبب التعاسة لأخي أيضا بعد أبي، كل بنات النجع لم يقبلن بالزواج من أبي؛ حتى المطلقات، والأرامل، والعانسات، وكبيرات السن، قالت له واحدة بالنص:

- "أنت تملك كارثة صغيرة، ويا ليتنا سنلاقي منك تقديرًا ولن تقدر على عمل شيء، ألا تعرف أنك في مرحلة الوداع ؟".

أبي عَزى رفضهم إلى وجودي، كنت مصيبةً علي نجع بحاله وليس على بيته وحده، على حد قوله، في يوم جاء أبي غارقًا في رائحة الجاز، وبالرغم من ذلك فقد شمني ليجد رائحتي متعفنة، فض لفافتي ليجدني غارقًا في العفن، طلب من أخي أن ينظفني، ضحك أخي وهو يكتم أنفه وقال بأنه نظفني كثيرا، كنت مقرفًا على حد قول أخي، المهم أن أبي عقد اتفاقًا مع أخي أن يرعاني، على أن يدور- أبي- ليوزع الجاز من العربة الصغيرة التي يملكها، يمسك بالمفتاح الحديدى ويضرب أجناب العربة فتصرخ بالصوت المقلق، هذا النداء العتيق يعرفه كل أبناء النجع، بل إنهم ينتظرونه، وإن سحبهم من بحور النوم، يمسكون "الجراكن" الصغيرة، يندفعون من أفواه البيوت، يملؤون "الجراكن" ويمنحون أبي نقودهم، كان "سليم" يحملني ويسندني على المصطبة الممتدة بطول دارنا ودار أمي "مارية"، ويجري ليلعب لعبة السدود.

أخي يحب تلك اللعبة، هو والعيال يملؤون دِلاء المياه ويصبونها في مجرى كبير، ويبني كل واحد من العيال سدًا لا تخترقه المياه الجرارة، وكان أخي ماهرًا بالبناء، يحاوط المياه ببنيانه الكبير الذي يماثل السد العالي، لكن الأعداء يزيدون ضغط المياه، وأخي يبني ويبني، ويفتح

fb/mashro3pdf

في السد فتحة صغيرة، تتدفق منها المياه إلى السدود الأخرى، يتحكم أخي في المياه وحده؛ حتى تأتي التيارات الكبيرة تتهدم في طريقها كل السدود، أو أحيانا يلعب الكرة، حين يمسك بشراب قديم ويملؤه بالخرق، ويكوره ليشبه كرة مطاطية صغيرة، العيال يضعون حجرين متباعدين كعارضتين ومثلهما في البعيد، يأتي أخي أحيانا ليعدلني أو ليهدهدني قليلا أو يغطي الأجزاء التي تعرت، أو يبعد الحشرات التي تمشي على جسدي حين تكون الكرة بعيدةً عن مرماه، ويتركني ويجري حين تكون الكرة قريبة من المرمى.

بكيت بشدة وخرجت الأم "مارية" وهي تحمل "ماتيلدا" على كتفها، جرت بسرعة إلى الداخل، وخرجت من غير "ماتيلدا"، حملتني وهدهدتني وقالت لأخي:

- "لابد أن تكون الببرونة دافئة ويجب عليه أن يضع فيها الحلبة المخلوطة باللبن، أو الينسون الدافئ".

فكت لفافتي فداهمتها الرائحة كقنبلة خراء صغيرة، كنت معجونًا بالقرف، أخذتني وشطفتني ووضعتني في لفافة بها صليب يشبه صليب يوم ميلادي، جاء زوجها "ونيس" ونظر إليها، قالت:

- "إنه إنسان".

لم يتكلم "ونيس" ورجع ولما رأت سكوته، أخرجت ثديها، وأعطتني بعضا من الحليب الخاص بـ"ماتيلدا"، ضحكت أمي "مارية" وهي تخبرني أني التقمت ثديها كتائهٍ في صحراء وجد بئرًا مليئةً بالماء،

fb/mashro3pdf

وضحكتْ أكثر، وهي تخبرني أني كدت أشفطها من خلال ثدييها، لأول مرة أعوم في النظافة بهذا الشكل، حتى أن أخي حسدني على نظافتي، وحين رآني أبي قص عليه "سليم" ما كان من أمي "مارية"، ضحك أبي وهو يقول:

-ألم تكن "مارية" تريد ولدًا، أعطه لها ويتنصّر ويريحنا منه ومن رائحته.

كثيرًا ما كنت أضع نفسي مكان أبي، هل كنت سأعامل ابني بهذا الشكل، حين يتسبب في موت زوجتي وأم عيالي وخادمتي، هل كنت أعامله بكل هذا القرف، أم أكثر من ذلك؟.

-ماذا بك يا عبدالله ..إلى أين ذهبت؟

-أنا هنا يا ناجح.

-طيب سأذهب أنا إلى بيتنا وأنام.

انتبهت إلى أننا في الميدان الوسيع الذي يبدأ منه النجع وينتهي إليه، وبه موقف عربات "الكبود" المرصوصة بجوار بعضها كبيوتنا التي بنيت بغير تنظيم، الميدان هو نقطة تلاقي الشوارع الأربعة، شارعنا كان قديمًا شارعًا مُعبدًا لم تكثر على شاطئيه البيوت، وكان مُحاطًا بجبلين كأنهما يدا أم رؤوم، تمنعان عنا حرارة الصيف في الأيام المليئة بالصهد والسموم، وتمنحان الكانون لهبًا غير متراقص بقوة في الليالي الشتوية، بدأتْ البيوت في النجع تعتلي الجبلين وتصنع فيما بينها دروبا ملتوية تمتد بك إلى أعلى، جاءت الأعمدة الكبيرة التي

fb/mashro3pdf

تشفط الكهرباء وترميها في بيوتنا، وحُفِرَت الأرض لتمتد المواسير الغليظة التي يجري الماء في جوفها، وتنسل منها أذرع صغيرة تدخل البيوت مقفولة بصنابير تجعلنا نتحكم في الماء، ورُصِفَ شارعنا بالأسفلت الناعم والمدكوك بقوة.

لم أكن وُلدت حين جاء العم "ونيس" ومعه عائلات مسيحية كثيرة، وقُسِّم النجع لحظتها إلى شقوق، كشق النصارى، وشق الرواجح، وشق البستاني، وكان شق النصارى هو الذي يضمنا نظرًا للأغلبية الذين يسكنونه من أبناء الصليب، كانوا يمشون مسافة بعيدة في أيام الآحاد للذهاب إلى الكنيسة البعيدة للقدَّاس، واقترح أحدهم بناء كنيسة في المنطقة الواسعة شرق النجع، وكان المسجد هناك مخصصًا له قطعة أرض كبيرةً أيضًا، وقام المسلمون والنصارى ببناء المسجد أولاً ثم بناء الكنيسة ثانيًا، وحين تنظر من البعيد تحس أن الاثنين يقابلان بعضهما في الأعالي، حيث ملكوت الله، ويوم أول صلاة في المسجد قام أبناء الصليب بعمل وليمة كبيرة حضرها الشيخ الجليل "ناصر البشري"، وقال في خطبة له:

-"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ×"

أيها الناس، إن رسول الله تزوج من "مارية" القبطية، ونحن أبناء جَلدةٍ واحدة، وكلنا يدٌ واحدة ضد الغريب، هنيئًا لنجع أنتم فيه بهذه المحبة، وهذا التسامح الذي يليق بالإنسان".

fb/mashro3pdf

تم افتتاح الكنيسة وحضر القس "أبانوب" والشماسين والرهبان والخدام، وقام المسلمون برد الوليمة، وخطب القس "أبانوب" وقال:

"إن الله يحفكم بالكرام أولاد الكرام، والدنيا ضيقة وبرغم اختلافنا في الدين لكن غايتنا واحدة وهي عبادة الله، ليبارككم الرب، وتحفكم ملائكته، وليجعلكم في الأعالي في ملكوته، وتذكروا أن الله محبة"

وهنّأ المسلمون المسيحيين بحرارة، بل إن العمدة في ذلك الوقت عزم الشيخ "البشري" والقس "أبانوب" ورجال النجع، وأولم في خيمة المناسبات، بل إن المسيحي كان يساعد المسلم في بناء بيته، والمسلم يبيت ببيت المسيحي مدافعًا عنه ضد السرقة، الكنيسة الآن تصدعت، وشقوق كثيرة وجدت لنفسها طريقًا يسيرًا في الطوب النيء، حتى جرس الكنيسة بات يئن بخفوت كأنه يعاني وجع الزمن.

وصلت إلى بيتي، مددت يدي، وأخرجت المفتاح الخشبى من فتحة بجانب الباب لا يراها من يطرقه، المفتاح تمتد منه قطعتان حديديتان تشبهان المسمار ليدخلا فى تجويف المزلاج، يتحركان قليلا فيدفعان السقاطة إلى الأعلى ، أدخلت المفتاح في المزلاج الخشبي الكبير، رفعت السقاطة الخشبية، وسحبت المزلاج، انتظرت قليلاً، ستفتح "ماتيلدا" باب بيتها وتطلع، وبالفعل طلعت "ماتيلدا"، وستلوح بيدها أن تعال، ولوحت بيدها أن تعال، أشرت إلى ملابسي علامة الاستحمام، وإلى فمي علامة الأكل، أومأت برأسها متفهمة وهي تدور بإصبعها علامة السرعة، وعلى فمها ابتسامة مريحة ومبهجة.

fb/mashro3pdf

دفعت الباب فأصدر صريرًا مزعجًا لدوران قائمه في "الكوز" الصفيح الذي تآكل قعره، رحت مباشرة إلى الحمام، فتحت الدش ليغسلني، بيتي متواضع، به ثلاث حجرات، واحدة لنومي وواحدة لنوم سليم وحجرة الحاصل لتخزين الحبوب، زائد الحوش الخلفي وبه فرن الخبيز المعطلة، وبجوارها المقارص التي كانت تستخدمها الأم قديمًا، بالأمام الحمام والمطبخ من غير أبواب، وما حاجتي لباب الحمام إن لم يكن معي أحد؟!، الأبواب الثلاث للحجرات الثلاثة، بالإضافة إلي باب الحوش كلهم يفتحون على السقيفة، بيتي مسقوف بالفلوق ومن فوقها جريد النخل المدملك بطبقة طينية تحميني من حرارة الشمس في الأيام الحارة، لكن يقلقني ذلك الشق الذي انفتح بالأمام في الجدار، كأنه يعاني وجعًا مثل وجع الكنيسة، كانت لدي ثلاجة وغسالة وتلفزيون وبوتاجاز، لدي أيضًا زير مياه من العهد القديم، وكنت أبدل الكوز الصفيح أسفله كلما امتلأ بنقاط المياه، فتحت الثلاجة وأكلت الطعام باردًا فليس لدي وقت لأسخن الأكل على البوتاجاز، "ماتيلدا" تنتظرني، شربت من الزير وفتحت باب بيتنا.

الليل يسطو على شارعنا، يشبه جسم رجل مصاب بالبهاق من الأنوار التي تقطع في لحمه، البعوض يعوم في الفضاء الذي يحتله النور حول الأعمدة، يكثر جدًا حول المصابيح المعلقة، يعلو صرير الجنادب والضفادع حين تغادر الأقدام شارعنا، خبطت على باب بيت "ماتيلدا" وانتظرت ريثما تفتح.

fb/mashro3pdf

٣

"ماتيلدا" بيضاء ككوب لبن ومليئة باللحم، لها أنف دقيق وعينان خضراوين، وشعر بلون العتمة، الأسود شعرها ينسدل على الأبيض وجهها فيلتقي الضدان فيعكسان جمال بعضيهما بقسوة، لها شفتان عبارة عن جلد رقيق يتكوم الدم من تحتهما، لها عنق يعاني تكلسا خفيفا نشأ من اللحم الوفير زادها جاذبية، "ماتيلدا" جميلة، وإن كان حظها قليل في الزواج، تقدم لها "وصفي" لطلبها للزواج أكثر من مرة، لكنها لا تحبه، وتراه ثقيل الدم، "وصفي" له ثقل وكلمته مسموعة وسط المسيحيين، وكنت أعزى عدم مجيء أحد لطلب زواجها لخوفهم منه، بيت أمي "مارية" على عكس بيتنا، فهو من الطوب الأحمر المسقوف بالخرسانة والملونة حوائطه بالألوان المبهجة، قلت لها ذات مرة:

- "لماذا اخترتِ لون حجرتك باللون البمبي؟"

قالت:

- "لأنه كان لونًا منتشرًا مما يمنحه ألفة وتشعر أنه لون رحيب

fb/mashro3pdf

وضيف مرحب به دائمًا، تشعر أحيانًا أنك فرح ومبسوط وتحب تقبيل الجدران"

كنت أعرف أن لهذا اللون صفات محببة للنفس، فهو لون مبهج ومترع بالشفافية وصادق إلى حد كبير، تتداخل الجدران في عمقك إن كنت تماثلها وتشتبك بروحك وتهيئ لك عالمًا رحبًا يجعلك ترقص دون الحاجة للموسيقى، وبحكم مهنتي أعرف أن "ماتيلدا" صادقة ولا تُكِنُّ كرهًا لأحد، هي مثلي لا تعرف كيف تكره من الأساس، فتحت "ماتيلدا" الباب فكأن القمر له أرض وسماء، وكأنهما قمران لا تقدر على الحكم لأحدهما كي لا تظلم الآخر.

-هل ذهبت لرؤية خطيبتك؟

تجاهلت سؤالها وأنا أدخل إلى عمق البيت

-أمي "مارية" كيف حالها؟.

-في غرفتها.

دخلت إلى أمي "مارية"، كان وجه أمي قد ظهرت عليه السنين، تهدل جلدها وتكرمش تحت عينيها، غير أنها لازالت تملك مسحة من جمال لا تُخطِئها العين، تلقفتني بابتسامة ودودة مرحبة، اتكأت وقبلتني:

-أحس دائمًا أن الرب مبسوط بك.

أتسمَّع لتلك الحشرجة التي يخرجها صدرها كسيمفونية مزعجة.

-ربنا يجعلنا عند حسن ظنك يا أمي.

fb/mashro3pdf

-لم يذهب إلى خطيبته يا أم.

قالتها "ماتيلدا" بلهجة مغايرة للهجة استقبالي، كأنها تحاول أن تمنح الكلام طريقًا آخر يقلل من حجم القلق على الأم.

التفت إليها وأمسكت ذقني بسبابتي وإبهامي وضيقت حدقتي عيني، كأني أقول لها "اصبري"، أخرجت "ماتيلدا" لسانها وهي تبتسم وتفرك قبضة يدها المضمومة على راحتها الأخرى المفرودة.

-لماذا يا ولدي، ألم تقل لي بالأمس أنك ستذهب، لا تجعل أحدًا يقول لك ما المفترض عليك فعله.

-حاضر يا أم.. لا تقلقي سأذهب لرؤيتها.

وحدها "ماتيلدا" تعرف كم أحب "نورا"، تعرف أنها متربعة بداخلي، وتشغل حيزًا كبيرًا من فراغ قلبي، تعرف أني حين أقول إني سأغضب منها، فهو كلام مقبول لتبرير عجزي أحيانًا، أنا لا أعرف كيف أزعل من أحد!، فكيف أزعل من نورا؟!، ربما لأمنح نفسي القوة على مواجهتها، أحيانًا كان كلامي السيء عنها تبريرًا أمنحه لنفسي لعدم قدرتي على قول كلمات معينة في حضورها، أشعر أن جسدي غير متحد مع بعضه، عقلي يعاند قلبي، وقلبي يعاند عقلي وأنا أتأرجح بينهما، عقلي يرفضها بصفاتها، وقلبي يحبها بصفاتها ولو زادت، وأنا لا أعرف كيف أبقى على الحياد، بصحبتها يهيمن قلبي على جسدي، وبعيدًا عنها يهيمن عقلي على جسدي، يحاول التدخل وإقناع قلبي أنه يعمل لصالحه، وأن قلبي يتصرف بأنانية واضحة، ربما قد تدفع الجسد كله إلى شر ما،

fb/mashro3pdf

حين تزعل "نورا" لأقل الأسباب أحاول أن أبقى متحدًا، وأن أكلمها كأن زعلها لا يعنيني، لكن هناك بعض التصرفات التي تظهر رغمًا عني، كارتعاشة البدن وزوغان بؤبؤ العين قليلاً، قدَّامها أجاهد لكى تبقى عيناي جافتين، أخرج من عندها، أروح إلى العامود النحاسي، أتسند عليه، وأفتح المجال لكل محبوس، ترتعش أطرافي وأبكي بحرقة من غصة تسد حلقي، وقبضة باردة تعتصر صدري، أبكي على مهل حتى أهدأ تمامًا، أقوم ولا أخرج من بيتنا حتى ترجع عيناي إلى طبيعتهما.

رميت الملاءة على جسد الأم، ونظرت إلى الصور المعلقة على الجدران، بعض كلمات للبابا "شنودة"، صورة للمسيح وهو يتصاعد إلى السماء وسط هالة نورانية زادته ألقًا، المسيح وهو طفل بين يدى البتول، المسيح وهو على الصليب ينزّ دمًا، الشهيد "مار جرجس" وهو يمتطى حصانًا أبيض ويقتل تنينًا مجنحًا، راقبتني وأنا أتمعّن في الصور، من رسمها راعي لتلك المحبة التي تطل من عين الصغير وأمه للعالم، ونجح تمامًا في أن يمنح وجهه طيبة خالصة، حتى نظرة الأم لوليدها المليئة بالتحنان، والولد الصغير يهز ذراعيه فرحًا، أنا لم أشعر بتلك اللحظات التي تبدو فيها الأمهات حانيات على صغارهن، وكان يتسرب دمعي حين أشاهد برنامج "جولة الكاميرا" لأجد الطائر الصغير يخفق بجناحيه في الهواء، ويضع شيئًا ما بمنقاره لوليده، حتى حنان أمي "مارية" كنت أعتقد أنه جزء صغير من تحنانها على "ماتيلدا".

المسيح تربى يتيمًا بغير أب، وأنا تربَّيْتُ يتيمًا بغير أم، المسيح لم

fb/mashro3pdf

يكن له أخٌ يعكنن عليه حياته ويضطره للخروج بعربة الجاز في النهار المعبَّأ بالحر والصهد والأشكال الهلامية التي تتصاعد من الأسفلت وتتراقص في الفراغ، لم يكن له أخ تركه وحيدا ليحمل أعباء البيت وسافر.. يا إلهى كم ظلمت "ماتيلدا"، كأنني كنت لعنة على من حولي حتى الذين هم من خارج ملتي، أبي كان يملأ وجهي بصاقا مع أننى كنت جزءًا منه، فكيف بالغريب عن الملة؟، أمي "مارية" عاملتنى كإنسان، عاملتنى كما يليق بطفل لا دخل له بالدين، كانت تقول لي في بعض الأحيان أنها ترانى قسًا بطيبة قلبي وبشاشة روحي.

الحقيقة أنني أبدًا لم أفكر بالأمر من زاوية المسلم أو المسيحي، لكنني فكرت مثلها من زاوية الإنسان والإنسان، ربما كنت محتاجًا لهذه الزاوية، أنا الذي رضعت من صدر مسيحي وليس العكس، لذلك أنا مدين بوجودي إلى أمي "مارية" وليس إلى أمي "وجيدة"، كثيرًا ما تناقشت أنا و"ماتيلدا" في مسألة الإسلام والمسيحية، كانت تضحك، وأنا أضحك حين تقول "تنصر يا أخي"، وأقول لها "أسلمي أنت"، وتبقى الإنسانية طرفًا دائمًا في المعادلة، وطريقًا ممهدًا ومفروشًا بمحبتنا، ما غضبت في وجهى أبدًا، وما قالت لى كلامًا يجرحني كمسلم، وما قلت لها كلامًا يحاول النيل من معتقدها وقناعتها، في رأيى أن الإيمان بدين ما هبة إلهية لا دخل لبشر فيها، رسولنا الكريم حين أراد هداية عمه "أبي طالب" على فراش الموت أنزل الله آيته" إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (1)، لو تنصرت أنا فهي هداية لي من وجهة نظر "ماتيلدا"، ولو

fb/mashro3pdf

أنها أسلمت فهي هداية لها من وجهة نظري، وكلنا نحب الهداية لكل مخلوقات الله، هي لله وليست لي أو لـ "ماتيلدا"، ربما كانت ظروفى الخاصة التي جلعت منى حياديا.

أنا آلم لكل الناس الموجوعة، وأحب كل الناس مسلمًا كان أم مسيحيًا، وكلا الطرفين يرفضني ويكرهني، وكلاهما يشدني إلى جانبه على اعتبار أني غير مكتمل من وجهة نظرهم ، المسيحيون يريدونني مسيحيا بحكم التربية، والمسلمون يريدونني مسلما لأصل الوجود، ولشكهم في إسلامي، وما يعلمون أني ما غيرت قناعتي أبدا، فقط هو تعاملي مع المسيحيين على اعتبار أنه أصبح غير مألوف في هذا العالم، الوضع الجديد للعالم المخلوط بالتكنولوجيا غيَّر المفاهيم التي كانت راسخة في قلوب الناس في زمن غير بعيد، هم لا يعرفون أني ما شعرت بنفسي ناقصًا أبدًا، وأبدًا ما نظرت للأمور على أساس الدين، الأديان كلها خلقت لترتقي بنا عن التصرفات الهائجة للنفس البشرية، لتحكمنا وتضع أطرًا حولنا لا نغادرها، تسمو بأرواحنا لنعرف الله، خلقت لتدلنا على بصيص النور وسط الظلمة المفروشة، كل الأديان غايتها واحدة وإن تعددت طرقها وأساليبها، أنا أحب موسى وأحب المسيح وأحب محمدًا والصحابة والتابعين وتابعي التابعين، أحب "وصفي" و"خليفة" و"حراجي" وأخى "سليم" وأختى "ماتيلدا" وأمي "مارية".

أبدًا لم أحمل في قلبي شيئًا يعكر صفو محبتي لأحد، بالرغم من الكلام الذي أسمعه أحيانًا ويجرحني، ويشق داخلي بموسٍ ثُلِم حده،

fb/mashro3pdf

لكني لا أقدر على غير محبتهم، ربما لو تبدلت الأماكن ومشوا في طريق تجربتي لأحبوا العالم، جسدي مسيحي وعقلي مسلم وفكري يقول إن العالم يسع العالم، وإن الله محبة، والله أحن من الوالدة على ولدها والله غفور وحليم وسلام، ربما كنت حالة فريدة بدت كنتوء في جسم النجع، وربما لا تجد أحدًا يشبهني لا في معاناتي ولا في سلامي النفسي الذي يريحني تمامًا، ويمدني بقدرة كبيرة على الاحتمال، قدرة لا أعتقد أنني اكتسبتها لأنني تعلمت ذلك بصفة ما، هي هبة إلهية نبتت في داخلي كبذرة، وأنا رويتها حتى تعاظمت، وصارت تملأ نفسي بالطمأنينة.

كانت "ماتيلدا" قد فرغت من صلاتها فوقفت أمامها وهي تنظر إلى بعين ملأها الدمع وفاض.

-أمنا يا عبدالله.

-أمنا بخير يا "ماتيلدا".

-أنا خائفة عليها.

-لا تخافي ودعي كل شيء لله.

وجهت نظرها للسماء

-أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين منا، ولا تدخلنا

fb/mashro3pdf

في تجربة، لكن نجنا من الشرير، بالمسيح يسوع ربنا لأن لك الملكوت والقوة والمجد إلى الأبد..آمين (الصلاة الربانية.. متي 6:9-13)

-الوقت تأخر يا "ماتيلدا"، سأذهب إلى بيتي.

وافقتني بإيماءة من رأسها، أنزَلَت معها كمًّا مضاعفًا من الدمع، "أحمرت عيناك يا "ماتيلدا"، وجعك يزداد يا أخت، وقلبك ضعيف لا يحتمل تلك العواصف المتواترة"، "ماتيلدا" لم تتمالك نفسها وارتمت في حضني، يصلنا حشرجة صدر الأم وهو يستلقط الهواء الشحيح، بكت "ماتيلدا" أكثر على كتفي وراحت تنهنه.

-من لي غيرها يا عبدالله

كدت أقول الله ورسوله يا "ماتيلدا".

- الله والمسيح يا "ماتيلدا".

-المسيح كلمة الله يا عبدالله، هو جزء لا يتجزأ من ثلاثة أجزاء يشكلون الله.

-أنا مسلم يا أخت، وأنتِ مسيحية، وكل واحد منا وله رؤيته، لكن هذا لا ينفي أنكِ أختي.

رفعت رأسها من على كتفي، ووقفت تنظر إلى عيني التي تلونت بسحابة من دمع غبشت الرؤية من حولي، حتى وجهها كان يترقرق خلف صفحة ماء عيني.

-وأنا سأظل دائمًا أحبك يا أخي، حتى لو قلت المسيح ليس

fb/mashro3pdf

الله، وحتى لو قلت المسيح لم يخلق أصلاً، وحتى لو كنت كافرًا بكل الأديان.

-الله لم يجمعنا لكي يفرقنا شيء، آدم كان إنسانًا، والناس خرجت من رحم إنسانيته.

-ونحن كلنا لآدم رغم اختلافنا يا عبدالله.

أنزلت جفن عيني حتى تلاقى بالجفن الآخر وبتلاقيهما فاض الماء.

-أمي "مارية" أرضعتني لبنها المسيحي يا "ماتيلدا"، اللبن الذي هو من حقك، اللحم الذي تكوم على ذراعي وصدري يشهد أنك أختي، هذا حق طبيعي لنا، حق لم يشارك فيه إلا أنا وأمي وأنتِ.

احضنتني بقوة مرة أخرى، وبكت بقسوة، وبكيت وراحت الجدران تهتز وتفيض بطوفان نوحيّ آخر، وكأن كل شئ يفيض بالماء.

-الوقت تأخر يا "ماتيلدا"، وفي عرفي وعرفك نحن إخوة، وفى عرف الناس أبناء ديانات مختلفة، أنا سأذهب، واجعلي عينك على أمي "مارية".

وافقتنى بإيماءة موجوعة وتبعتني إلى الباب وأغلقت ورائي، ذهبت إلى بيتي المجاور لبيت "ماتيلدا"، فتحت بابي وضغطت زر الإضاءة، هاج الناموس وأخذ يلف ويدور حول اللمبة "القلاووظ" الصفراء، فتحت الثلاجة وفكرت قليلا وأغلقتها، من أين آتي بالنفس التي تود الأكل، دخلت حجرة نومي وضغطت زر إضاءة لمبتها، واجهني الخنجر

fb/mashro3pdf

المملوكي القديم، والمشنوق على الجدار بمسمار، كانت تعجبنى نقوشه المنمنمة والتى ربما تحكي شيئًا لا أعرفه، ولا أحتاج معرفته، إن كان شيئًا مهمًا فربما يقتلني أخي لكي يأخذه، أحيانًا وبشكل عام فإني أحب جهلي ببعض الأشياء التي لن تفيد معرفتها في الكثير، لا أحب أن يقول لي أحد إن فلانًا يكرهك، أو فلانًا يدبر لك أمرًا ما، اجعلني أتفاجأ فربما يحدث شيئًا يُغير من سير الأمور فيبدل ما بدماغه وفقًا لقناعات مستجدة.

أخي "سليم" بالرغم من أنه جاء من نفس موضعي لكنه مختلف عني تمامًا، كان يكره المسيحيين، لا لم يكن يكرههم، كان يمقتهم ويتصور الدنيا خالية تمامًا إلا منا فقط، كان يقول أشياء تضحكني، مثل إن للمسيحيين رائحة غريبة يفوح بها كفرهم، وإن رؤية القس تجلب القمل إلى الرؤوس، لذلك يجب أن تحك دماغك بأصابعك العشرة حين تراه.

كنت أضحك وكان يكره ضحكي، وأحاول إقناعه أن الله الذي أرسل "المسيح ابن مريم" هو الذي أرسل "محمد بن عبد الله"، والمسيحيون الذين لم يسمعوا عن رسالة محمد هم في الجنة، والمسيحيون الذين ماتوا على المسيحية قبلاً هم في الجنة، والله أعلى وأعلم، أنت مقتنع بأن الإسلام حق، وهم مقتنعون أن المسيحية حق، ولو قلت لك أعد نظرة في الإسلام هل تقبل؟"

أخذ ينظر إليّ شذرًا والشرر يتطاير من عينيه، فأكملت:

- مثلما لو قلت لأحد فيهم أعد النظرة في المسيحية، لماذا

fb/mashro3pdf

تقبل لنفسك شيئا ولا تقبله على غيرك؟"

صرخ قائلاً:

- "لأننا على الحق".

قلت:

- " وهم يظنون أيضًا أنهم على حق، "وكل واحد يتعلق من عرقوبه"، الله يا أخى محبة والله نور والله غفور رحيم والله سلام، هو-سبحانه- من سيحاسب الجميع، الله ملأ العالم بالمحبة لكننا نظرنا لأنفسنا، الله حدد طريقنا، لكننا نسينا، فنزل آدم من الجنة، وقتل قابيل هابيل، الله رحيم يا أخي وعدلٌ وسلامٌ، ومن اسمه يجب أن يسود السلام الروحى عالمنا بأكمله".

مشى أخى وهو يزعق بأن دماغي تالفة، وأن المسيحيين ينفثون الشر في عمقي ونفسي وبدني، بالفعل أنا حالة خاصة، حالة فريدة مشبوحة على صليب التعب.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٤

طرقات الباب سحبتني من نومي بقوة، قمت متكاسلاً ونهضت تداعبني بقايا النوم اللزج، فتحت الباب لأجد "ماتيلدا" واقفة بوهجها وابتسامتها العذبة.

-لماذا لم تذهب إلى العمل يا بطل؟

-شعرت بأنني مرهق، كم الساعة الآن؟

-اقتربت من الواحدة ظهرًا، تعال وكُل معي.

-سأستحم وأغير ملابسي.

-سأجهز الأكل.. لا تتأخر.

-حاضر.

كيف لم يأتِ ناجح ليوقظني، أتراه متعبًا أم ماذا؟، دخلت بيتي وأخذت دشًّا ساقعًا وصليت الصبح، والظهر.

fb/mashro3pdf

-لماذا عيناك خضراء يا "ماتيلدا" وأنا عيناي سوداء؟.

-أبي قال لي إن لنا أصولاً أوروبية وليس أصول مصرية.

بالفعل "ماتيلدا" تشبه الأوربيين الذي يكبرون وسط الثلوج ويرون الشمس مرة واحدة في الشهر، الثلج هو من يمنحهم العيون الزرقاء والخضراء، كما نراهم في نادي السينما، وحدث بالفعل، واخترنا لك، وكما نراهم في مولد أبي الحجاج الأقصري وهم يمرحون وسط الأعمدة الأثرية المهيبة.

-ولماذا لا تقولين إن عينيك خضراء لأنها لم تنضج بعد.

ضحكت...

-جسدي سوف يتغير أيضًا وسأبقى سمراء مثلك تمامًا حين أنضج.

-السمار نصف الجمال يا أخت.

-الأبيض الجمال كله يا نور عين أختك.

-أتعرفين، لو لم تكوني أختى، لما كنت تركتك ولو بالطبل البلدي.

-وانت لو لم تكن أخي لما تركتك إلا وأنت مقيد بالإكليل، هل رأيت خطيبتك بالأمس؟

-لا، الوقت كان متأخرًا وأنا كنت مرهقًا بالفعل.

fb/mashro3pdf

حلفتني بثالوثها المقدس وبمحمدي أن أذهب إليها، ومن غير أن تحلفني، أنا كنت أنوي الذهاب إلى خطيبتي، ولما انعطف حوارنا على "وصفي" الذي يود الزواج بها، قالت إنها ترى أن دمه ثقيل وهو صاحب سيجارة "أي انه يشرب الحشيش والمخدرات"، كنت أعرف هذا الكلام، وأعرف أنه يكره المسلمين أكثر من اليهود، وأعرف أنه لو خُيِّر بين اليهودي والمسلم لاختار اليهودي، حتى وإن كان غاصبًا لأرضه كارهًا لوجوده.

في الحقيقة أنا من قلت لها إنه يشرب الحشيش في البداية، وتأكدت هي بعد موت والدها، حتى أبوها "ونيس" قال له الرأي رأى "ماتيلدا" على عكس النجع ممن يحملون الأفكار القديمة والبالية بحجة أبناء العم، ورفضت "ماتيلدا" مرة ومرة، لكنها عادت وقالت:

- "النجع كله يشرب حشيش، ووصفي من أبناء النجع".

حين سمعت كلامها عرفت أنها تمهد لنفسها بقبوله على أساس كلام الأم من "ظل رجل ولا ظل حائط"، وأريد أن أفرح بك قبل أن أموت، "وصفي" غير "وصفي"، أنا لا يهمني من، لكنني أريد أن أموت وأنا مطمئنة، أنتِ كبرتِ يا "ماتيلدا"، ونحن نجعٌ مغلق ولن تأتي قدم غريبة لتطلب يدكِ للزواج"، لا أعرف كيف لم يرها أحد من زوار آحاد الكنيسة، أين هي من نجع "الرشايدة" ونجع "الفاوى" وتجمع "النشارية"؟، هل لم يرها أحد؟، أم بالفعل هم خائفون من "وصفي"؛ لأن الكل يعرف قدر محبتها عنده، بل إنني سمعت أنه أقسم بالمسيح

fb/mashro3pdf

والأم المقدسة ليصبح خصيمًا لكل من يطلبها للزواج، أنا خائف من فكرة رهبنتها التي تطرحها بين الحين والحين، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يسهل أمورها ويرسل لها ابن الحلال، هكذا كل يوم تدعو لى أمي "مارية" بالرب وبالمسيح والعذراء، وأدعو لهم أنا بالله، بالطبع هاج "وصفي" حين قالت له "ماتيلدا" في المرة الأخيرة إنني أخوها ولي حق المشورة في زواجها، قال:

- "يا ناس كيف للمسلم أن يزوج المسيحية؟، يا ناس أنا فاقد عقلي فاعطوني أنتم عقولكم، هذا أمر عجيب".

ردت عليه "ماتيلدا" وقالت:

- "إننا إخوة في الإنسانية وما للأديان دخل بهذا الأمر.

أعرف أن "وصفي" يحبها منذ أن كنا عيالاً في المدرسة، ومن وقتها يعرف النجع أني أخ لـ"ماتيلدا" وابن لـ"مارية"، أكلت مع "ماتيلدا" وشربت شايًا، كان صدر الأم قد هدأ بعض الشيء من تلك الحشرجة المقلقة.

fb/mashro3pdf

٥

هناك قوانين غير مكتوبة يمشي الكل تحت رايتها، البنات لهن عادات لا يمكنهن الحياد عنها، هي أمور متوارثة لا يمكن التفكير فيها، الرجال أيضًا يرضخون تحت سطوة العادة والتقليد، حتى وإن كنت تؤمن بأن حريتك مكفولة لقناعتك ورؤيتك فسيظل إيمانك حبيس جدران صدرك، وعند التطبيق الفعلي لما تؤمن به سترضخ لرأي التقليد، هي أمور خُلقنا عليها ولا يمكننا أن نتجاهلها.

"نورا" كانت من ذلك النوع المتمرد الذي يحاول الانقلاب على سيطرة العادة، وتتبع العجلة الدوارة للتطور، كانت تقول:

- "لماذا حُكِمَ على بنات النجع أن يكُنَّ زوجات لأبناء العمومة؟، لماذا انحسر اختيارهنَّ ممن جاد بهم القدر في مراتب صلات الرحم؟ هل المسلم البعيد غريب؟ لماذا لا يدخل صومعتنا ويمتزج دمه بدمنا، يختار منا له ونختار لنا منه، كيف يقول الله لا فرق بين عربي ولا عجميٍّ إلا بالتقوى، ونحن نقول إن هناك فروقًا بين العائلات، وكأن دمائنا

fb/mashro3pdf

ملكية لا يجوز لها أن تمتزج بالصعاليك، في حين أننا الأكثر صعلكة في العالم".

بالفعل نحن تحت سطوة العادة والتقليد غيَّرنا كل المفاهيم، ربما لكي تتوافق مع عاداتنا، وتركنا ما يخالفنا وإن كنا نؤمن به كشرائع مكتوبة غير ملزمين بانتهاج مسلكها، لم أكن أجد صعوبة في فهم منطقها، ولكن هذا تفكير الرجال في النجع، ولا يمكن لأحدٍ الكفر بأفكارهم، وإلا جرَّ نفسه لويلات من الحروب، أنا في الحقيقة كنت متطورًا في داخلي، راضٍ بفكري الذي يصور لي أن كل الناس واحد، كلهم أبناء انتماء أصله آدم، لماذا تحصل المشاكل كل فترة بين المسلمين والمسحيين؟، لماذا كل هذا الحقد الذي رأيته بأم عيني من الجانبين، ممثلاً في "وصفي" و"سليم"، في كل مرة تصفو القلوب من الغل، ونكتشف بعد ذلك أن هذه القلوب لا يمكن لها أن تنظف من أدْرانها، وأن النظرة للآخر مرتبطة بالفهم المغلوط للأمور، حقيقي أنا صاحب تجربة خاصة ربما هي التي جعلت منى حياديًّا، أحب أمي "وجيدة" المسئولة عن وجودي، وأحب أمي "مارية" المسئولة عن تربيتي، لكن هذا ما كان ليرضي الناس أبدا ، كان منحي لقب "أم" لـ"مارية" هو مقابل عادي لكم اللبن الذي سحبته برضاها من صدرها، وهى كانت تحتاجه، قالت لي إنها مبسوطة باللقب حد الفرح، وإنني كنت نعمة من الرب عليها، وهى تشبهني بالنعمة فكيف أبخل عليها باللقب؟، ثم إنني لم أكن واعيًا لأقبل أو أرفض، عمري كبر على ذراعها، وذلك ما منحني الفرصة لقبول شيء أو رفضه، هي فقط أمي لأني وعيت أنها

fb/mashro3pdf

أمي، أخي "سليم" يكره كلمة أمي لها ويقول "لنا أم واحدة"، وبعد حين يرجع ويقول "أنا لي أم وأنت لك أم"، كأنه بهذا ينفي مجيئنا من صلب واحد ومجرى واحد، لكنني كنت أسامحه، دائمًا ما كنت أشرح له أني عاقل بما يكفي لابتكار أسلوب يخصني في التعامل، متوافق مع قناعاتي، دون الحاجة للسير في طرق أخرى لقناعات أشخاص غيري.

نورا تؤمن بهذا وكانت تقول أيضًا إن من حقها أن تختار من ستكمل معه طريقًا يفترض أن يكون نهايته الموت.

نورا اختارتني رفيق درب، هل اختارتني فعلاً أم أنني كنت ابن عم لها؟، أنا لست ابن عمها من الدرجة الأولى، لكنني من العائلة، وهذا يرميني في صفوف أبناء العمومة.

وصلت الآن إلى بيت "نورا"، خبطت على بابهم، ومهدت جسمي لغزو الفرحة برؤيتها، تبدو ارتعاشتي واضحة، ها هي الخطوات تشد الشبشب باتجاه الباب، ها هو القفل يدور في الكالون، ها هي ضلفة الباب تفتح، ها هي نورا، لا لم تكن "نورا"، كانت الأم التي فتحت الباب وابتسمت ومدت يدها المبسوطة بالسلام، تنهدت كأني أنفض نفسي من وقوعي داخل إناء به ماءٌ مثلج، مددت يدي وسلَّمت عليها، سحبتني إلى الداخل، أشارت إلى الأنتريه الوثير.

يا بيتهم الوسيع كم أحب جدرانك لأنها تحمي "نورا"، يا سقفهم المزخرف كم أحبك لأنك تمنع الشمس من حرق جسم "نورا"، يا هذا الكوب الذي تشرب منه ويا تلك الآنية التي تأكل فيها، يا ذلك المطبخ

fb/mashro3pdf

الذي تقف فيه، ويا تلك الأرضية التي تمشى عليها، أنا أحبكم لأنكم تخدمون "نورا".

كانت أمها تحبني على عكس والدها، في نظر الأم كنت أنا أفضل الخيارات المتاحة، والمتاح قليل وكلهم يمثلون أطرافًا في العائلة، كانت تعلم تمامًا أن البنت لابن عمها، مثلما هي وغيرها والكل من بنات العائلة، كانت تؤمن بتلك الشرائع غير المكتوبة، وتقول نحن لا نضمن الغريب، وإذا وافق النجع على الغريب وحصل الطلاق، ستقل فرص البنت في حياة كريمة، لكن مع ابن العم سيعتبر الموضوع زيت في دقيق، ولن ترجع مكسورة الخاطر يومًا، "أعدك يا أمها أنني لن أكسر بخاطرها"، ضحكت في بالى، أنا لا أعرف كيف أكسر خاطر قطة، فكيف أكسر خاطر أنثى أحبها؟، لكني كنت أحب أن أقول لأبيها إنني لن أرجع ابنتك إليك يومًا حاملة لدمعة حبيسة، وأنا أعدك يا بيتهم أني لن أجعل نورا تجلس تحت جدرانك وهى نادمة.

كنت أعرف أن أباها لم يكن ينظر لي على أنني مثاليّ. هو أيضا قبلني على أساس المتاح والجيد ولكن ليس الأجود، حتى أنا كنت أحيانًا أستكثر "نورا" على نفسي، كنت أعرف أن حظي كبير وأن الله يقبل دعائي ويستجيب لأنّاتي، لكن الأب كان يمسح بفرشاة الرضا لكل ملامح الضيق، ربما يضع في الحسبان أنه لو عاملني بما لا يليق لعاملت ابنته بما لا يليق، كنت أريد أن أقول له أنني لست كما تظن، وستثبت لك الأيام أن تصرفاتي مليئة بالرضا على أفعال ابنتك، وإني الآن مرتاح، والفرحة تلعب في داخلي كمهر جموح.

fb/mashro3pdf

اتكأت على الأنتريه الوثير المليء بالإسفنج والمرسوم على كسوته أوراق الشجر، بيتهم لا يشبه بيتنا، بيت "نورا" طاوع التقدم فانهد الطوب اللبِن منذ زمن، وبنى بناءً حديثًا خرسانيًّا ولُيِّطَ بالأسمنت، وجاء نقاش مثلي لا أعرفه وزخرف الجدران والأسقف بالألوان المبهجة، وأصبح لكل غرفة لونها الذي لا يماثل أختها، وكم تناسقت الألوان مع الأنوار وراحت تضفي جوًّا رومانسيًّا وحالمًا، خبطت "نورا" على الباب ودخلت ترفل في عباءة بلون الأحمر الفاتح، كأن عباءتها قطعت من الجدران وشكلت معها لوحة جمالية، عباءتها محكومة على جسدها النحيف، يديها وقدميها مدهونتين بالحناء، بشرتها سمراء بلون القمح مثلنا جميعًا في النجع، المسلمون كلهم كانت لهم تلك البشرة القمحية التي تتدرج من القمحى للبنى فالبنى الداكن فتشبه - غالبًا - للنحاس المصقول، الأجساد كلها منحوتة والوجنات بارزة والأنوف متباينة، والشعر الناعم المتدفق كشلال ليلي يتطاير في أنحاء الغرفة، خصرها نحيل كأنه يحتال ليجد مكانًا له في الجسد، هي تعرف أني أحبها وتتفنن في إبهاري، تكاد عيناى تبرزان من محجريهما حين تنظر إلى الأرض وتغنى مقطوعة لـ "أم كلثوم" أو "عبد الحليم حافظ"، يدي تحب يدها وقدمي تحب قدمها وشعر رأسي يحبها، يا إلهي كلي يحب كلها، كنت أصلي وأدعو الله، وأقول يارب أنت خلقت الجمال متمثلاً في وجه "نورا"، فكيف كان سيدنا "يوسف"؟، وأنا أعرف تمامًا أن سيدنا "يوسف" أجمل من "نورا"، أنا أحمدك وأشكرك يارب "يوسف" و"نورا"، يارب أنا الآن أحتاج إليك أكثر مما

fb/mashro3pdf

مضى، زوِّجني بها يارب، واجمعني بها في حلالك، اللهم أرها فضائلي إن كانت لي فضائل، وابعدها اللهم عن رؤية عيوبي إن كانت لي عيوب

" فالمرء مرآة تريه لوجهه... ويرى قفاه بجمع مرآتين" ×،

وهي مرآة ترى في نفسي ما لا أراه، يارب علمني كيف أداري كل ما تكرهه "نورا"، وإظهار كل ما تحبه، يا إلهي على فمها حين تضحك فترتج دواخلي، تظهر عقدًا من لؤلؤ أخاذ، لو دخلت الشمس لانعكست على أسنانها، تهرب مني أعصابي فلا أعرف ما الذي أحتاجه لأحرك يدي اليمنى، ولماذا حين أحرك اليمنى تتحرك اليسرى، ولماذا يتكوم الكلام على طرف اللسان، وحين أقوله أجده يراوغني كثعلب ماكر، تتبدل الحروف بقسوة، وتضيع بين نظرات عينيها، كحلها يبدو كأسوار تحبس الجمال الرباني بداخله، الشفتان مملوءتان بالعسل المصفى، والروح مليئة بالمحبة.

كانت جالسة بجواري، أغمضت عيني وحاولت استرجاع سيطرتي على جسدي، فتحت عيني فرأيتها تضحك، كيف أقدر على الزعل من "نورا"، الحقيقة أن الزعل كان وسيلة أكذب بها على نفسي لأثبت لي أني قادر على السيطرة على محبتي لها، لكنني في داخلي أعرف أني أكذب، جاءت الأم وصنعت بيننا مساحة مقدارها صينية الشاي، لا أعرف لماذا تضع الصينية بيننا بالرغم من أن الطقطوقة المعمولة لهذا الغرض تنزوي كحيوانٍ أليف في الركن.

-تفضل ..اشرب الشاى.

fb/mashro3pdf

أحيانًا أشعر أنها مضطرة للجلوس معي، وأنها لا تحب ذلك، شئ تخفيه "نورا" ولا أعرفه، لكنه يقلقني، يصنع في داخلي بحرًا متلاطمًا من أسئلة، حتى أني لا أقدر على البوح معها، كانت منيتي أن أفرغ فوران قلبي على أسماعها، علَّ الكلاب التي تنبح بداخلي تهدأ، لكني أخاف أن تمسك محبتي وتضعها طوقًا حول رقبتي وتسوقني قدَّامها، أخاف أن أجبر على الأفعال حتى مع عدم رضائي عن هذه الأفعال، ويبقى رضوخي سمة، وأتحول بمرور الوقت إلى أداة للتنفيذ، بغض النظر عن قبولي أو رفضي، كيف أفعل ما يخالف إيماني؟

-ألن تشرب الشاى؟

مددت يدي وأمسكت الكوب ورشفت منه.

-أمي "مارية" أوصتنى أن أبلغك سلامها.

-أنت مسلم، كيف تكون أمك مسيحية؟

-"مارية".......؟

قاطعتني وهي تتلو على أذني عبارتها المعتادة.

-أعرف أنها أرضعتك وقت أن تخلى العالم كله عنك، لكن بيننا وبينها اختلاف ديني، أنت لك حق في ذلك لا أنكر لكن يبقى الاختلاف.

-وهل يمنعني هذا من أن أقول لها يا أم؟

-هذا لا يمنعك، أنا لا أنكر حقها ولكن لا يمكنني تقبل فكرة

fb/mashro3pdf

الأم بالنسبة لمسلم.

كلماتها تمشي كبساط من قلق يفرش نفسه بداخلي، الصراحة أني كنت أمهد لزيارات "ماتيلدا" و"مارية" لبيتي، حين تجيء "نورا"، لا أعرف لماذا تنظر إلى البعيد وهي تكلمني؟، لماذا تتحاشى عيني؟، تنحنحت وقلت لها.

-أتعرفين يا نورا أنك تشبهين "ماتيلدا"؟

-أنا لست جميلة مثل "ماتيلدا"، "ماتيلدا" قمر.

-سأذهب الآن متى تودين أن آتى لزيارتك مرة أخرى؟

-بابنا مفتوح دائمًا، في أي وقت تحب.

-لماذا أشعر دائمًا أنك تخفين شيئًا ما عني؟

-هناك أشياء لا تقال، وأشياء تقال في موعدها، أنا طيبة وأحيانا ساذجة، لكني أحب ديني جدا يا عبدالله، والحقيقة أنني تربيت على ذلك، الدين هو الأساس، وأحب في زوجي أن يكون محاربًا في سبيل دينه.

-أحارب على ديني ضد من بالضبط؟ يعنى لو رفعت سكينًا في وجه مسيحي، أسيرضيك هذا؟، ماذا فرقت أنا عن وصفي أو سليم أوحراجي أو خليفة.

-أكل هؤلاء على خطأ يا عبدالله؟

-كلهم خطأ، كلهم واقعون تحت تأثير إعلام لا يُفسر ولا يشرح

fb/mashro3pdf

الحقائق، إعلام بدلاً من أن يدير الدفَّة ويبعدك عن المشاكل يفتح عينيك عليها، ويا ليتها حقيقية، أنا أختى "ماتيلدا" ....

-لا تقل أختى "ماتيلدا" لأننى أحس أنني سأتزوج مسيحيًا.

قالتها "نورا" صارخةً ووقفت وغادرت مكانها بجواري، مشت إلى حجرتها، كلماتها تشبه خناجر دقيقة تغوص بأضلعي، حاولت النظر في مختلف الحجرات علّ أمها رأتها وهي تغادر مكانها بجواري، لم أشعر أن الأم رأت شيئا، قمت كأن الرضا يسيطر على ملامحي، وكلاب تأكل لحم صدري، ناديت أمها وشكرتها وفتحت الباب ومضيت، كيف وصل بها الحد إلى تركي قاعدًا وحيدًا على الأنتريه؟ من الذي منحها الجرأة على هذا الفعل؟ هل هو ضعفي؟ المفترض أن أغضب وألا أرجع إليها مرة أخرى، هل لو تركتها شهرًا ولم أذهب إليها، أتراها تسأل عني، لا لن تسأل، يجب أن أفسخ خطبتها وأن لا أكمل مشواري معها، لكن ربما هي تريد ذلك وتريد إيصالي إليه بأفعالها، لو أن بنتًا غيرها قاطعت كلامي بهذا الشكل لصفعتها ولرميت إليها دبلتها ودستها بقدمي، من الذي سيصفعها؟، أأنت تقدر على صفع أحد؟، أأنت تقدر حتى على زعل أحد؟، لو أن متسولاً طلب منك جنيهًا ولم يكن معك نقودًا لما نمت ليلتك وضميرك يقتلك تأنيبًا، فما بالك ب"نورا"، نعم هي "نورا".

قلبي يغلف كل شئ تجاهها بالرضا، حتى وإن كانت تقصد أفعالها، فدائما ألتمس لها الأعذار وأقول ربما لا تقصد، ربما خانتها العبارات والتصرفات، ربما عليها ضغط ما من أى أحدٍ لا أعرفه، دائما أفهم

fb/mashro3pdf

المغلوط منها على أنه جميل، هي عرفت هذا وزادت في حدتها ربما لتجعلنى أؤمن بأشياء غيبية لا أعرفها لكنها ستتضح يوما ما، ربما هي تمهد لتصرفات ستفعلها بعد الزواج، أتراها تحب أحدا غيري؟، يا إلهى، لا .. لا يمكن، حتى مزاحها ملئ بالكلام الذي يعصبنى بعيدا عنها، هي تضايقنى لكني لا أقدر أن أقول لها إنها تضايقنى، إن كانت من غير زعل تجعلنى أتقلب على جمر مفروش على سريري، أجد صورتها معلقة أمامى كبندول ساعة، تروح وتجئ ولها طنين، تقتلنى آلاف المرات في اليوم والليلة، ترمي على عينى السهر، وترمى على دماغى الفكر المقلق، ما الذي يفرح "نورا"؟ وما الذي يحزنها؟، هي كتلة مطلسمة ضاع مفتاحها، لكني أشم رائحة عدم محبتها، أقلق جدا حين يصل تفسيرى إلى تلك النقطة، ما كان يجدر بى أن أقول لها "كلهم خطأ"، لا، كلهم فعلا على خطأ، "وصفي" و"حراجي" و"شنودة" و"سليم"، كلهم على خطأ. لماذا هذا الضعف؟، ما الذي يجعلنى متمسكا بها إلى هذا الحد، البنات كثيرات ولتحترق بالجاز، لا..لا يارب لا تحرقها بالجاز، سأموت لو احترقت وكأنني أنا الذي سأحترق، الغصة المريرة تتصاعد إلى حلقي، القبضة الثلجية ترجع لتعتصر صدري، أريد البكاء، أريد أن أبكي شهرا أصنع خلاله بحرًا من دمع، ليس مهما لو أننى نزفت حتى شرايينى وأمعائى، البكاء يريحنى ويضعنى على الحياد منى، أنا عاجز عن تلك الشجاعة التي تجعلنى أبكى أمام أحد، أعجز عن أظهر مهزوما، هناك ألفة وحميمية نشأت بينى وبين البكاء، منذ أن أخذتنى أمي "مارية"، " وسأقول لها يا أمي "مارية" يا "نورا"، هذه التي ترفضين أن أبتهج بسيرتها

fb/mashro3pdf

أخذتنى وأرضعتنى وغيرت لفافاتي، كانت لي عين دلفل، فقط أعرف أن كل الأيدى قادرة على الربت، كل الأثداء قادرة على الإرضاع، كل القلوب قادرة على التحنان، أخى "سليم" نفسه كان يشير إلى "مارية" فتتلقفنى سعيدة شاكرة، لم تغضب "ماتيلدا" لمشاركتي ثدي أمها، كانت تنحي لى الجلباب الذي يعريني وتحممني وتجعلنى نظيفا حتى أن أبي قال ذات يوم " أكتبوه على إسم ونيس" ، أبي - نفسه - اعتذر لها لما يسببه "إبن الكلب" لها من قلق، قالت "لا فرق بيننا يا أبو "سليم" ، أبي كان مبسوطا لأن عيناه لا تريانى، فأنا نبتة شيطانية أكلت الأرض التي أنجبتها، وحين كبرت وذهبت إلى المدرسة، لم أجد من يهتم بى، المريلة متسخة دائما، وجهى مليئا بالعماص، والذباب يحط عليه من كل اتجاه، ومن أنفى يسيل المخاط، والأستاذ ضربني أكثر من مرة على أنى ألبس فردة الحذاء اليمنى في قدمى اليسرى، وألبس الفردة اليسرى في القدم اليمنى، دائما يضربنى لهذا السبب، مريلة "ماتيلدا" دائما نظيفة وأمها تعتني بها، وحين يكلمني الأستاذ أقول له لأنني لا أنام في بيت أمي "مارية" ، كان يضربني وكانت "ماتيلدا" تقف وتقول إنه أخي لكنه لا ينام عندنا، ويقف الأستاذ ويكذبها ويكاد يضربها، "وصفي" يقف ويقول هو ليس أخاها فهو مسلم، لكني أقول لـ "وصفي" "ماتيلدا" أختى و"مارية" أمي، يجلس "وصفي" خائبا، حتى حين جاء عيد الأم كان الكل يشترون زجاجة العطر والمنديل المزركش بالورود والقلوب الصغيرة، ويذهبون إلى أمهاتهم ويقولون "كل سنة وأنتى طيبة يا أمى" ، وأنا أبقى كسيف الروح، أبي قال لي "أمك ماتت" ، وليس لى

fb/mashro3pdf

أم أروح لها، لكنني أشتريت زجاجة العطر والمنديل المزركش بالورود والقلوب الصغيرة، خبطت على باب بيت أمي "مارية" ومنحتها زجاجة العطر والمنديل، وقلت لها "كل سنة وأنتى طيبة يا أمى"، ضمتني إلى صدرها الكبير واحتوتني وظلت تنهنه بصوت مسموع، حتى "ماتيلدا" احتضنتني من الخلف بقوة، في اليوم التالي لبست المريلة وذهبت إلى بيت أمي "مارية"، غسلت لى وجهي ومشطت لى شعري الناعم، وقبل أن أمشي قلت لها، "أين الفردة اليمين وأين الفردة الشمال؟" جعلتني أخلع حذائي وبدلت الفردتين، قالت لي أن آتي إليها كل يوم لأمشط شعري ولتغسل لي وجهي، رحت إلى المدرسة وجاء الأستاذ فأخرجت قدمي في الطرقة وأنا أظهر له فردة الحذاء، حتى حين قال لي "أرني حذاءك" أخرجت قدماى مملوءًا بالثقة، هذه هي "مارية" التي لا تقبلينها يا "نورا".

كانت الأعمدة ترمى بالنور إلى الأماكن القريبة منها، والناموس يشكل حلقات دائرية لها صوت مسموع، الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، دخلت إلى بيتنا، لم يكن لى نفس لآكل شيئا كان قلبي محترقا من الداخل وأوشك أن أخرج نيرانا من فمي كتنين أسطورى، وبالرغم من انى شربت شايا كثيرا لكني قمت إلى البوتاجاز وأشعلت إحدى عيونه، وضعت كنكة الشاى التي اسود أسفلها وتغيرت يدها بسلك ألمونيوم بديلا لليد الأساسية.كنت أود شراء كنكة جديدة من البائع الجوال للخردة، سأمنحه البلاستيك القديم أو أطباق ألمونيوم قديمة وسأبدلها يوم الجمعة، دائما كنت أتعلق أنا و"ماتيلدا" خلف عربته

fb/mashro3pdf

الكارو تزعق الأم "مارية" وتناديني وتنادى أختى "ماتيلدا"، تحممنى وتمشط لى شعرى وتقول لى انت ذاهب للقاء الله الرب،، وفى أيام الآحاد كانت تحمم "ماتيلدا" وتطلع مبكرا وتذهب مع الأب إلى الكنيسة، كانت تأخذ "ماتيلدا" ولا ترضى باصطحابي وكنت أقول لأبي فيقول "حقك، أنت ابن كلب مسيحي" ويضربنى، تعودت أن لا أحكى لأبي شيئا لأنه في كل مرة يضربنى.

شربت الشاى وقمت لأنام، أنا الذي تخايلنى الأشكال ونورا تتربع بين جلستى والسقف، لا أعرف كيف تتسلل لأحلامى رغما عني، حتى في غير أحلامي تبقى كطيف يتحرك في كل أنحاء البيت.

× الشريف الرضي

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٦

هناك مشاهد متفرقة تغزو ذهني الآن، كنت في المدرسة الإبتدائية، يوميا كنت أرى العم "راجح" وهو يفرد قدمه ويثني الأخرى تحت فخذه وحبل الليف يمتد من يده حتى يمسك بإبهام القدم المفرودة، يظل يلف بطريقة معينة حتى يصنع حبلا متينا، أكياس الليف المقطوعة من النخيل ملقاة بجواره، يأتي بقطعة قماش قديمة، ويلف بها الحبل الليف كي لا تؤذي رقبة الحمار، يأتي "عادل" الخواجه، ويمسك الحبال المفتولة ويجرى، يقوم العم "راجح" غاضبا ويجري وراءه وهو يصرخ ويشتم و"عادل" يضحك ويضحك، يقف "عادل" على مسافة بعيدة وهو يشير بالحبال، والعم "راجح" يقف أيضا وهو يحك ذقنه بسبابته، "عادل" يلوح بالحبال أكثر:

-سأعطيك الحبال بشرط واحد، أن آكل معك.

- كل يوم تأكل يا صريمة، هات الحبال وتعال كل معي.

fb/mashro3pdf

- كل مرة جبن وبيض وأنا لا أحب لا الجبن ولا البيض.

- لا يوجد غير الجبن والبيض، إن أعجبك تعال وكل، يا أخى أنت لم تقل لى مرة واحدة تعال وكُل عندى، أنت مدين لي بألف أكلة.

-قل لزوجتك تعمل الأكل وسأعطيك الحبال.

-طلاق منها لن أقول لها، ادخل أنت وقل لها.

يضحك "عادل" بقوة ويرجع للعم "راجح" ويحتضنه ويقبل دماغه، يضع "راجح" الحبال في طشت الماء لكي تلين وتتقوى، يدخلون الدار ويأكلون "الجبن والبيض والطماطم والشطة المقلية"، وحين يمزح العم راجح يقول لعادل:

-يا أخى هل أنت مكتوب في بطاقتي؟.

يضحك عادل ويقول:

-ألا تعرف أن اسمي عادل راجح.

***

وكان العم "متى" الحلاق يطوف بالحمارة على أبواب النجع، عدة الحلاقة موجودة بالخُرج على جانبي الحمارة، يأتى العم "متى" يوم الأربعاء في السوق ويفرش الخُرج على الأرض ويجلس عليه، أبي يمسك بى فأجلس على الخرج وأدلدل رأسى أمامه، يمسك بماكينة الحلاقة اليدوية ويمر على رأسي، دائما ما يترك لى كتلة من الشعر بالأمام ولم أكن أحبها، أبكي قدام أبي، يدفسني برجله ويقول للعم متى" احلقها له

fb/mashro3pdf

يا عم متى ابن الوسخ "، فكان جزائي أن يمنحني رأسا أقرع تماما، أمر بيدي على رأسى فأحس أنها مزروعة بالشوك، أبكي بصمت قدام أبي.

أذكر ذلك اليوم في صباحية العم "سلمان" الحشاش، كان الطبق الكبير مفرودا و"سلمان" جالسًا بجواره وعم "متى" الحلاق ينادي بالخلافة ويقول" خلف الله عليكم يا محبين، والعريس المتقدم، خلف الله عليكم يا محبين ونجيلكم في الأفراح" وكان الناس يكشفون الطبق ويضعون فيه النقود، كل بما تجود به يده، وكان العريس يكتب المبالغ الكبيرة؛ لأن عليه سدادها حين يتزوج أصحابها، قبل انتهاء الخلافة ولم الطبق حملني أبي ووضعني على الدكة بجوار العريس، ورأيت العم "متى" يسن شيئا ما على جلدته، وكان بجوارى "خليفة" و"حراجي"، "خليفة" بكى وأنا لم أعرف لماذا كان يبكي، جاءنى العم "متى" وأبي يقول لى" بص الطيارة.. بص" انظر إلى الأعلى ولا أسمع الضجيج الذي تحدثه الطائرات، وأظل أبحث في السماء، أحس بهم وهم يباعدون بين ساقي ويكشفون عضوى، اندهشت وخفت، زعق أبي" الطائرة..الطائرة"، وقف أحدهم فاصلا بينى وبين "خليفة" و"حراجي" كى لا يرون ما يفعلون، ظللت أبحث عن الطائرة - التي لا أراها - بخوف، وأمسك العم "متى" بعضوى وقطع قلفتي، بكيت والدم يسيل مني، وضع شيئا ما عليها وأنا أصرخ و"خليفة" و"حراجي" حاولا الهرب وأمسك الناس بهما، ربطوا عضوى وأنا أصرخ وحملني أبي ومشى بي وهو يضع شيئا في سيالة جلباب العم متى، ورأيت "خليفة" وهم يباعدون ساقيه ويصرخ ولا ينظر إلى الطائرة.

fb/mashro3pdf

وكان العم "متى" هو من يخيط الجروح الكبيرة ويكبسها بالبن من غير بنج، وكان يجبر المكسور ويكوي أدمغة كبار السن، لم تكن الحياة كما هي الآن، لم يكن هناك مسيحي ومسلم إلا من خلال الألقاب وممارسة الديانة، خارج المسجد والكنيسة يكون الكل نسيج واحد..أذكر تلك المعركة حين قام واحد من نجع الرشايده بضرب بنت "الزمار" حين كانت في أرضهم تلم بواقي القصب المحروق "الكعروب"، زعق في البنت فزعقت فيه فصفعها وهرب، ركبت البنت حمارها وتركت الشوال المليء "بالكعروب" الذي ستأكله البهائم وجرت إلى أبيها، قام النجع كله ولا فرق بين مسلم ومسيحي، ولما سمع أبناء الرشايدة بالموضوع قالوا نحن لا نرضى بالخزي، ولم يقبل أحد فيهم أن يشارك في المعركة التي اقتصرت على بيت الولد..دخل المصلحون وحين تقدم ناس "الرشايدة" بالاعتذار في الخيمة المخصصة للمناسبات، قام "عادل" الخواجة وقال لا بد للولد من أن يركب الحمار بالمقلوب ويكون وجهه ينظر إلى ذيل الحمار، ويمشي في النجع لكى يبقى عبرة وإلا فإننا سندك بيتهم دكا، وبالفعل أجبر نجع "الرشايدة" الولد على ركوب الحمار بالمقلوب، وخرجت الحريم وهن ينثرن القمح علينا وألسنتهن تتلوى بالزغاريد، كانت الفرحة مفعمة بالإنتصار الكبير للنجع، يومها أمسكت زوجة العم "راجح" بدكر البط وذبحته وقدمته كله لـ"عادل" الخواجة، ومنحته الحق في تقسيم دكر البط على الآكلين ..بعد ذلك بدأت هوجة ليبيا.

***

fb/mashro3pdf

عرفنا أن ليبيا بلد مملوءةً بالخيرات وأن الجنيه هناك يعادل أربعة أضعافه في النجع، جاء "عبد الحميد الفوال" من ليبيا، جاء محملا بالبضائع اللازمة لاستنبات الفرحة في قلوب الناس، رأينا البطاطين الفرو وكنا نحسد عياله لأنهم ينامون تحت هذا الوبر، ونحن تجرحنا البُرَد الثقيلة وتبدو كجبل جاثم فوق صدورنا وتعطل تنفسنا أحيانا، رأينا العباءات الجوخ والشيلان الكشمير ماركة الجمل، والأهم من هذا كله أنه جاء محملا بالناشيونال ٥٤٣، كنا قبلا نعرف "أم كلثوم" من خلال الراديو في المقهى، لكنه كان مليئا بالبرامج السخيفة ونشرات الأخبار، لكن هذا الساحر الصغير كان يعمل بالبطارية، ويجعلك تتحكم في ما تسمع، كلنا كنا نحب "أم كلثوم".. بيت "الفوال" كان يعوم في الفرحة حين يدفع الأب الشريط إلى أحشاء الكاسيت ويغلق عليه الباب، تدور البكرات في الفتحة الزجاجية، تهتز السماعات ويطلع الصوت، يا هذه الست التي تصنع رعشة في الأبدان، "أم كلثوم" كانت تطلع لترش الفرح والحزن حين يطلع صوتها مصاحبا للموسيقى من بطن هذا الكائن العظيم، وبدأت ليالي الونس تدب في النجع، وبدأت المصاطب تمتلئ بالناس في الأماكن التي يرتع فيها صوت الست، وبدأت ليبيا تتحول إلى حلم، كنت أول مرة أرى ذلك الجهاز العظيم ولا أتفاجأ حين تندفع الآهات بحرقة شديدة ويطلع المكتوم، كانت الست تلون فضاءاتنا بالمحبة، تلف الرجال حولها حتى بعد المعارك، تزيح الخلافات جانبا وتنشر عليهم السكينة وتخرج من أعماقهم أطفالاً بهيئات كبيرة، واعتدنا رؤية مشاهد معينة، مثل أحدهم وهو يحمل

fb/mashro3pdf

"الناشيونال"٥٤٣، ويحتضنه ويقبله ويضمه إلى صدره بتحنان أبوي، أو أن ترى أحدهم يجلس على الموردة وهو يمسك بمصاصة القصب ويلوح بكلتا يديه مفرودتين كأنه موسيقار عظيم موافقا لإبداع الست، كلنا كنا نرسم صورا للست في دواخلنا، منها أنها جميلة إلى حد القتل، فلا يصح أن يكون هذا صوتها وصورتها لا تجعلنا نمصمص شفاهنا من الحسرة، ومن مواصفاتها في أذهان النجع أن لها شعر يطيره الهواء كذيل حصان جامح، جسدها ملموم على بعضه في حالة إتحاد، وبدن رشيق طايب، وأصبحت الست زائرا دائما في أحلام أهل النجع، وتكون هي الصوت الوحيد الذي يخرس الأصوات من حولها، ولا تسكت إلا في لحظات الآذان، ومن العجيب أن "عادل" الخواجة هو من يخرس "أم كلثوم" ليحل الآذان بديلًا، ومن التمايل مع الصوت إلى الوقار في الآذان ومن الصيحات المتأوهة إلى الخشوع والرقة، كنت أمنح جسمي للشارع ليلا فأرى الناس كل واحد منهم يحمل همه بداخله، بطون النجع مليئة بالهموم، وكانت ليبيا هي المفرج لتلك الهموم، وتحول اسم "عبد الحميد الفوال" إلى "عبد الحميد الليبى"، وزادت علامات ليبيا وظهرت النعم على الناس، وانطلقت في سماء النجع أسماء لم نكن نعهدها فإن كان الأب في السعودية جاء الولد سعودي، وإن كان في العراق جاء بغدادي وعراقي، وإن كانت ليبيا لها نصيب الأسد في الاسم، وامتلأ النجع بالعباءات الجوخ والشيلان الكشمير، والجلاليب الزبدة الرقيقة الشفافة، والسروايل السعودية، والشباشب اللامعة لتحل بديلا عن البلغ والقباقيب، وجاء دهان الشعر "الفازلين" وأصبح

fb/mashro3pdf

لشباب النجع سيالة جلباب تحوي حافظة جلدية ومشط أسود صغير، وانداحت العمم بين الشباب واقتصرت على الأجيال القديمة، حتى الأجيال القديمة باتت عمائمهم بلون السماء مزهرة وناصعة، كنت صغيرا حين كنت أتدرب على السير بعربة الجاز والخبط على جانبها بالمفتاح الكبير، وكنت أتحسر حين أرى العيال يلبسون الجلاليب البيضاء وجلبابي متسخ وله رائحة يفوح منها الجاز، ويوم راحة ويوم عمل.

فى يوم ما كنت قادما من طريق الخور بعد فراغ تَنْك العربة من الجاز، كان الجبل الأحمر يظهر لى من بعيد، حين ينزل الشفق تحس فعلا أن له كسوة حمراء كبيرة، أو ربما هي انعكاسة الشفق نفسه، أو أنه يبدو لنا من بعيد محمرًا ولامعًا، انحرفت بالعربة في طريق نجعنا، نظرت إلى الأرض، ووجدت ذلك الشئ الذي يلمع، نزلت من العربة وجريت لأجد خنجرًا منمنمًا وله مقبض فضى ملئ بالنقوش الصغيرة، كان له جراب جلدي مذهل، وحين أخرجته من جرابه وجدت أن له سنونا صغيرة تدخل الهواء إلى الجسد في حالة الطعن وتسبب الموت السريع، وجدته في الطريق الذي تمشي فيه قوافل "البشارية" و"العبابدة"، كان مكشوفًا كأنه سقط من أحدهم سهوا، أخذته ورأته أمي "مارية" وأُعجبت به جدا، ورآه أخي "سليم" وأخذه مني وعلقه في حجرة نومي وقال لى "متوريهوش لحد حتى أختك "ماتيلدا"، كانت ليبيا قد أصبحت حلما لكل باحث عن عمل، والكل يبحث عن عمل، وغاب نصف شباب نجعنا وراء الرمال، ودخلوا في مناطق جديدة بحثا عن زواج وبناء

fb/mashro3pdf

جديد، وزخيرة تكفل لهم الحياة بلا قلق، كان أخي قد علمني كيف أملأ خزان عربة الجاز من البنزيمة، وكيف أحاسبها وأضيف أجرتي على حساب الجاز، علمني كيف أنظف العربة وما هي الأيام المخصصة للنجوع القريبة منا.

***

لكن العذاب الحقيقى لم يكن في "الناشوينال ٥٤٣" إنما العذاب الحقيقي جاء به سعيد ومن ليبيا أيضا، كنا نسمع عن التلفزيون الأبيض والأسود والذي يعمل بالبطارية عند العُمَد، لكننا لم نره ولم يأت به أحد في النجع، لكن سعيد أحضر التلفزيون الملون، كان التلفزيون يفتح في الواحدة ظهرا ويغلق أبوابه في الثانية عشرة مساء، وكان "إسماعيل يس" هو البطل الحقيقي الذي يسرق منا ضحكاتنا في كل وقت، لكن ما أثار غضبنا هو صورة "أم كلثوم" وقد كانت مغايره للفكرة التي تكونت عنها في أدمغتنا، لها منديل يتطوح يمينا ويسارا مع كل أغنية، ولها كعكة كبيرة من الشعر خلف رأسها، ولم تكن ممشوقة الجسد، ولم تكن جميلة بما يضاهى الجمال المرسوم في عقولنا، حقيقي أننا رأينا مطربين كثيرين غيرها، ولكن يبقى صوت أم كلثوم هو القيثارة التي تطربنا.

أذكر ذلك اليوم حين كنا نلعب لعبة "التريك تراك"، جاء "سعيد" ووقف على حرف الدائرة التي نضرب منها العصي الصغيرة، نادى على العيال وقال "تعالوا اسمعوا الفيلم الجديد"، دخلنا بيت "سعيد" ورأينا النجع كله في الباحة الكبيرة في انتظار الفيلم، ورأينا ذلك

fb/mashro3pdf

الجهاز العظيم الموصول بالتلفزيون، ورأينا تلك الشرائط الكبيرة وعلى علبها أغلفة مثيرة، الخلق كثيرون في الباحة ومنهم وقوف وقعود، جلست في أول صف واشتغل الشريط، ورأيت ذلك الفتى "جانجا" في فيلم "مارد" وصاحبيه الحصان والكلب، وكيف دخل الساحة الكبيرة حاملا للتمساح الكبير، وضرب الرجل الأقرع وجعل التمساح يأكله، من فرحتي جريت إلى أختى "ماتيلدا" وحكيت لها ما كان من أمر "جانجا"، فقالت أنها ستذهب معي إلى بيت "سعيد"، وستشاهد الفيلم الذي سيعرض في الغد، كان الفيلم مؤثرا فينا بدرجة كبيرة، حتى أن أغلب من شاهدوه كانوا في حالة فرح، في آخر النهار تعارك "محمود السقاقري" مع "عثمان اللواب"، جري "عثمان" ورفع قدمه في وجه "محمود السقاقرى" وهو يصرخ بالاسم "جانجااااااااااا"، وضرب "محمود" في أماكن عدة مثلما كان "جانجا" يضرب الرجل الأقرع، وربما كان "محمود" يتساءل عن "جانجا" لأنه لم يكن قد رأى الفيلم.

كانت تأتي جارتنا "خديجة" في شبابها أحيانا وتغسل المواعين والملابس وتنظف بيتنا، تدخل البيت وتهيئ الحبال لإستقبال الغسيل الذي يقطر ماءً، تعصر وتملأ الحبال، كانت تجلس معي قليلا، كان حظها في الزواج قد أوقعها في زوج عقيم، فقالت الحمد لله وسكتت، رضيت بمقسومها، ورضاها مدها بالتعب في عمرها الذي كبر من غير كتف تتكئ عليه وتتسند، رضيت بنصيبها ولم يجبر أحد بخاطرها، بالرغم من أنها ذهبت للشيخ أمين وتقلبت على حُصره سبع مرات، وبالرغم من أنها ذهبت إلى الشيخ عبدالله الساكن فوق الجبل، وأخيرا ذهبت

fb/mashro3pdf

إلى القس الذي أمسك بتمرة ومضغها وأخرجها وتلا عليها ما تيسر من الإنجيل، قال لها كليها وعزم على رأسها، وأخيرا اقتنعت بعجز بطنها عن استقبال العيال وتدويرهم في مصنع الرحم، اقتنعت وسكتت عن الكلام؛ لأن الله لو رضي لها بالخلفة لما تركها تذهب للشيخ "أمين" والشيخ "عبدالله" و"القس" من الأساس، كانت تحكي لي بالرغم من أنها تعرف أني لا أفهم أكثر ما تقول، لكني أربت على كتفها فتأخذني في حضنها وتبكي، تضرب يدها في صدرها وتخرج لي عشرة صاغ آخذها وأجري إلى بيت العم "سعيد"، شاهدت فيلم "التوأمان"، وفيلم "الشعلة" وأحببت أغنية "محبوبة محبوبة"، وشاهدت أفلام بروسلى وفان دام وأرنولد والكثير من الأفلام لأناس لا أعرفهم، بدأت أسأل عن العبارات المسيحية المكتوبة في البراويز المعلقة على الجدران، ما معنى باسم الثالوث الأقدس إله واحد آمين، ما معنى الصورة التي بها الرجل يطعن التنين بحربته، وهل التنين موجود في حديقة الحيوان مثلا؟، ولماذا تقول أمي باسم الثالوث الأقدس ويقول أبي بسم الله الرحمن الرحيم، وحين سألت أمي "مارية"، قالت إن الثالوث الأقدس هو الآب والابن والروح القدس، هم ثلاثة في واحد، عبارة عن تكوين واحد بثلاث هيئات، والشيخ يقول إن هذا كفر وأن الله واحد فقط وليس له روح قدس وليس له ابن، وتلا "قل هو الله أحد"، كنت أقرأ القرآن مع العيال لأني ولدت في بيت مسلم، والعيال المسيحيين يقولون باسم الثالوث الأقدس لأنهم ولدوا في بيوت مسيحية، كلنا تربينا على الإجابات التي وجدت مجانية بدون الحاجة إلى أسئلة، هناك ثوابت

fb/mashro3pdf

وأمور مسلم بها في النجع، الله مسلم به والدين مسلم به والعرف والتقليد والعادة مسلم بهم، ولا يمكن أبدا مناقشة المسلمات، تنتقل من جيل إلى جيل ويتشبع بها الطفل عن طريق التعامل المباشر مع الحاملين لهذا المعتقد، وكانت هناك إجابات جاهزة لأسئلة ستتكون فيما بعد، وكانت هناك أسئلة تبحث عن إجابات.

***

الكثير من تضاريس النجع تغيرت، جاءت الأطباق اللاقطة لتشد الحريم العارية إلى مجال الرؤية، ظهرت المسلسلات التي تناقش الفتن الطائفية وتنقل لنا ما يحدث في العالم كله، كانت الأخبار تفسر لنا الحوادث التي يقتل فيها المسلمون والمسيحيون بعضهم، لم نكن نعرف أن العالم وسيع بهذا الشكل، لم أكن أعرف كيف للمسلم أن يقتل المسيحي وكيف للمسيحي أن يقتل المسلم، حتى ونحن نشاهد كان المسيحي فينا ينظر للمسلم والمسلم ينظر للمسيحي وكانت النظرة صك اتهام واضح، ذلك كان خطؤنا الكبير، ما كان ينبغي علينا أن ننفتح على العوالم، كانت كلما اتسعت رؤيتنا ضاقت أفكارنا، وتأجج الشحن في الصدور، وراح الكل يزم على شفتيه غير موافق لما يحدث في العالم من حولنا.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

٧

ككل صباح مشابه لصباحاتي أقوم إلى البوتاجاز وأضع كنكة الشاي، أحضر بعضًا من الكعك الذي ترسله لي "ماتيلدا" وأصب الشاي وأغمس وآكل، أطلع للخارج فأجد المعركة اليومية بين النهار الوليد والليل العجوز، سمعت السلام الذي ألقاه "خليفة" وهو يمر أمامي ممسكا بشيكارة فارغة من الأسمنت يضع بها ملابسه القديمة التي يرتديها في عمله بالخرسانات، رددت سلامه وسكت، لم أقدر أن أذهب للشغل في هذا اليوم أيضًا، دخلت إلى حجرتي وجلست على سريري وأخذت أفكر، كان "خليفة" صاحبى الوحيد، كنت في الصف الثاني الإعدادي، كنا أنا و"ماتيلدا" و"وصفي" و"حراجي" و"خليفة" كلنا في فصل واحد، كنا سبعة وعشرين شخصًا في حصة الدين الإسلامي، بينما يغادرنا ثلاثة عشر يتلقون تعاليم الدين المسيحي، حصة الدين فقط هي من تبعدني عن "ماتيلدا"، حتى في الفصل كنت أناديها بأختي

fb/mashro3pdf

وتناديني بأخي، الوقت كان صيفًا والصيف كان يمتلئ بالشمس التي تصب علينا الحر فيطلع العرق يلمع على الوجوه، الترعة كانت تستقبلنا في كل يوم، نروح إليها ونطفئ ظمأ الأجسام التي تغلي، طلعنا وفردنا أجسامنا للشمس التي راحت تجفف الماء، بهتت أجسامنا وأصبحت في لون النحاس، جاء "على" وصرخ وقال إن المسلمين ضربوا المسيحيين الذين يعملون في "النشارية"، أول مرة أسمع فيها بخلاف بين مسلمين ونصارى، هذا الأمر لم يكن مألوفًا أبدا، كنت أعرف أن "النشارية" هي المكان الكبير الذي يسكنه المسيحيين بجوار الكنيسة شرق النجع، وهى منطقة أكبر من شق النصارى الذي أسكن فيه، صاحب "النشارية" الأولى هو "كرلس" أبو "وصفي" وله أخوان كل واحد منهما له ورشة نجارة خاصة به، هم عائلة كبيرة تستورد الخشب وتقطعه وتصنعه وتبيعه كأبواب ودواليب وأسرة وكراسى، سمعت أن الحكاية بدأت بشخص اسمه "عراقى" قال لـ "كرلس" أنه يُريد بابًا جديدًا وبصنعة محكمة، ودفع له حق الباب بالكامل، على ميعاد محدد بعد أسبوعين ليأخذ الباب، "كرلس" دفس الفلوس في جيبه وراح لعمله وكان كلما صنع بابا جديدا جاءه رجل مستعجل فيأخذ الباب، ويروح "كرلس" ليصنع غيره، جاءه "عراقى" بعد أسبوعين فوجد أنه لم ينته من صنع الباب، ومر أسبوعان أيضا فراح له "عراقى" وحذره وقال له "أنتم النصاري لا تحترمون مواعيدكم"، "كرلس" استعطفه باللين من الكلام وقال له إن هذا الوقت موسم ويرجوه أن يصبر عليه أسبوعا آخر، ومر أسبوع وأسبوع وأحس "عراقى" أن "كرلس" قد أكل الفلوس عليه،

fb/mashro3pdf

راح للورشة ومن غير قصد لطم المنشار الكبير فجرحت يده فخرج يئن ويده يسيل منها الدم، وحين رأوه ناس النجع ظنوا في أنفسهم أن "كرلس" ضرب "عراقى" وجرح يده، ومن غير كلام أمسك البعض بالشوم، فالمشكلة هنا تمس كل واحد فيهم كما رأوا في المسلسلات العربية، كيف تقول النجوع المجاورة أن الإسلام أهين حين ضرب المسيحي المسلم، كيف يتجرأون عليهم ويضربون "عراقى" بين أظهرهم، العيون يطق منها الشرر، والأيدى تقبض بقوة على الشوم، العمم تهدلت على الرؤوس وليس هناك وقت للملمتها وتسويتها، اقتربوا من ورشة "كرلس". رآهم فوضع يديه قدام وجهه يحاول أن يفهمهم الوضع، لكنهم بغير كلام دخلوا إلى أحشاء الورشة وكسروا أغلب الأبواب التي كانت واقفة، "كرلس" لطم على وجهه وهو يقول "يا خراب بيتك يا كرلس"، وكأنه لا يرى العدد الكثير شتم وقال "دى فلوس ناس يا ولاد الكلب"، "وصفي" نزل هو وأعمامه فكان لهم نصيب من الوليمة التي طالت كل مسيحي واقف، رجع "عراقي" من المستشفى وزعق في الناس وشتمهم وقال لهم إن يده انتهكت المسافات وضربت المنشار فجرحها، وقال للناس "اليوم واجب الاعتذار لكرلس ولمن معه ودفع ثمن الخراب الذي حصل" كان الخبر قد طار فوق الحقول ووصل إلى شق "الفاوى" ونجع "الرشايدة" وهما التجمعان المسيحيان الأكبر بكثير من تجمع "النشارية"، جمعتهم مندرة "اصطفانوس" الذي قال لهم إن السكوت على الموضوع يزحزحهم إلى خانة الجبناء، إن الموضوع لا يمس "كرلس" بقدر ما يمس المسيحيين والكنيسة، وكما

fb/mashro3pdf

نرى في التلفزيون ..إن سكتنا في هذا اليوم فربما يعرفون أن السكوت سمة من سماتنا فيدخلون علينا بيوتنا ويركبوننا مثل البهائم ويدلدلون أرجلهم من فوقنا، وربما يطالبوننا بالجزية، "عراقى" راح "لكرلس" وقال له "يا كرلس أنا سأدفع ثمن ما وقع وأنا مدين لك بالاعتذار"، لكنه لم يرد، "عراقي" كانت له أرض يزرعها بجانب أرض "خالد الحرات"، كل النجع يعرف أنه يقوم - كباقى النجع - فجرا، يروح ويؤدي فرضه تقربا لله، يصلح سرجه ويتلمس طريقه إلى الأرض والدنيا مقسومة ما بين نهار وليد وليل يموت، دقات قدمه على الأرض تشبه دقات القبقاب الخشبي في المسجد، صوت خبطتها يوقظ العصافير فتتمطى وتنفض الندى عن أجنحتها وتغنى، "عراقى" يدندن بلحن - للكف الصعيدى - وهو يستنشق هواء الصباح الطازج، يملأ صدره بالهواء فتنتفخ رئتاه بقدر ما تستطيع وتتفتح مسام جسمه، يزفر بقوة فيرمي الكسل خارج الجسد، راح إلى أرضه وعمل فيها بجهد، وراحت الشمس تعلو فوق الرؤوس، لم يفطن للأقدام المتسللة التي راحت تقترب، نظر للخلف فوجد ناس "شق الفاوى" يقتربون منه بسرعة بقدر ما تسمح فصوص الثرى لجريانهم، نادى على "خالد الحرات" وهو يجري، ظهر "خالد" و"عباس" ومعهم آخرون في الصورة فرجع ناس "شق الفاوى" وهم يلوحون بأيديهم في وجه الشمس، راح الشيخ "كامل" للقس "أبانوب" أو جاء القس "أبانوب" إلى الشيخ "كامل"، المهم أنهم ضربوا موعدًا يلتقون فيه لإفراغ القلوب من شحناتها وترجع متصافية، وجاء الليل سريعا، وأمر الشيخ بإعداد المندرة للضيوف وأن تلبس المساند

fb/mashro3pdf

كسوتها وتصف جلود الخراف على الدكك ترحيبا بالقادم، دخل القس "أبانوب" بعباءته السوداء وصليبه المتأرجح على صدره، من ورائه جمع من المسيحيين لبسوا الصلبان فوق صدورهم كأنها ليلة من ليالي القداس، القس أمر "كرلس" ومن معه بالجلوس إلى جواره والشيخ "كامل" أبو "حراجي" أمر "عراقى" ومن معه بالجلوس بجواره، تكلم "كرلس" وتكلم "عراقى" وسمع الباقون بغير كلام سوى همهمات صغيرة تموت قبل أن تولد، قال القس "أبانوب" إنهم جيران ولن ينسى أحد أن المسلمين ساعدوا في بناء الكنيسة، وأن المسيحيين ساعدوا في بناء المسجد قديما، ولا يصح أن يتدخل في الموضوع قس أو شيخ، وأن مشاكلهم تخصهم كأبناء بلد واحد، وتكلم الشيخ وقال إن الدنيا قريبة ولا يصح للأشقاء أن يتعاركوا، سنغفر لكم هذا اليوم على اعتبار أن "مصارين" البطن تتعارك وتتصافى، وقام "كرلس" و"عراقى" وقبل كل منهما رأس الآخر، وقبل أن يجلس تكلم عراقى ووجه كلامه للقس وقال" يا أبونا هذه مشكلة بيني وبين "كرلس" فما دخل شق الفاوي ونجع الرشايدة فيها؟" وقبل أن يجيبه القس وقف "كرلس" وقال موجها كلامه للشيخ، " يا شيخ هذه مشكلة بيني وبين "عراقى" فما دخل باقي النجع فيها"، ضحك الجميع وقال القس أنتم أبناء بلد واحد عيشوا فيها وتمتعوا بأمنكم فليباركم الرب، هنيئا لكم تماسككم وتوحدكم، قرأ الشيخ الفاتحة وقرأ القس الجبنوت، وتصافحا واحترم الجميع سكوتهما وحكم الشيخ على "عراقى" بدفع ثمن ما خربته الناس التي راحت تجامله بتكسير الأبواب، هنا صرخ "عراقى" وقال" يا أولاد

fb/mashro3pdf

الكلب لو رأيتم كرلس يمسك في خناقى فلا يتحرك منكم أحد، من سيساعدني الآن في دفع ما كسرتم؟، وهنا لم يتكلم أحد وضحك الكل.

"وصفي" غاب عن المدرسة لأيام تالية، لم يكن أحد يسأل عنه لأننا نعرف أنه أخذ "علقة" كبيرة هو وأبوه، جاءنا في اليوم الخامس يعرج وقفاه كان متورما، ضحكت وانتبه لضحكاتى فكتمتها، وفى الفسحة رأيته هو وأربعة مسيحيين يلفون أكتاف بعضهم بأذرعتهم ويصنعون دائرةً بأجسامهم وينصتون لكلامه بينهم وفى آخر اليوم مشينا كلنا وانتظروا حتى مشى "حنفى" ابن "عراقى" ومن غير أن يراهم حاوطوه، صرخ فلم يتلق جوابا من أحد، ضربوه ب"السلف" الأخضر على كتفه ورأسه في غل، كان "حنا" يمسك "السلف" الأخضر و"شنودة" يضرب بقبضة يده الكبيرة على رأس "حنفى"، و"وصفي" يمسك به كيلا يجري، و"لمعي" يخبطه بقدمه في ركبته ووركه، الصراخ شدنا أنا و"ماتيلدا" و"حراجي" وباقي العيال، وحين رأونا تركوا أنفسهم للريح وهربوا، لكن "حراجي" أمسك بحجر ونقر رأس "شنودة" فوقع قليلا وقام يجري، لم يجرِ كثيرا ورأيته وقف ورجع جريًا حين رأى الدم يسيل من رأسه، "شنودة" كان يبكي ويمسك بحجر يود ضربنا، جرى "حراجي" بسرعه؛ لأنه كان وحده ومن الممكن أن يضربوه حتى "حنفي" تماسك وجرى و"شنودة" وراءهم يردد" ماشي يا اولاد الوسخة .. والعدرا لنضربكم بكرة "، كانت "ماتيلدا" واقفة واقترب مني "شنودة" و"وصفي" و"حنا" و"لمعي"، حاوطوني لكن "ماتيلدا" وقفت قدامي تقي جسمي بجسمها، قالت إلا "عبدالله" يا

fb/mashro3pdf

"وصفي" ، هذا أخي، قال "وصفي" " أيعني هذا أنك مسيحي مثلنا" أنا ما قدرت على الكلام، قالت "ماتيلدا" مسيحي يا وصفي ولن تقدر على لمسه"، قال شنودة: "اتركه لأن أمها "مارية" تأتي إلى بيتنا وستشكوا لأمى"..تركوني ووجدت صدري يعلو ويهبط من غير ضابط وما استطعت التحكم فى نفسي من الخوف الذي سال على ملامحى، شكرت "ماتيلدا" ومشينا، كانت تكلمني بينما أحاول جمع شتات جسدي وأعصابي التي هربت مني وتفرقت بين شقوق النجع، في المساء جاءنى "حراجي" وسألني لماذا لم يضربني المسيحيون ؟، لم أقل له أن "ماتيلدا" دافعت عني ، كيف تدافع عنى بنت!؟، والحمد لله أنه لم ير "ماتيلدا" حين تكلمت مع "وصفي" وإلا كان الموضوع قد تفشى في النجع وسمع به كل الناس، ساعتها لن أجد من يرحمني من كف أبي وهي تأكل المسافات إلى وجهي، ساعتها ربما انقلبت الدنيا رأسا على عقب حين يعلقني من قدمي في الحبل المربوط في "الشنكل" الذي يتدلى من السقف، سألنى حراجي"إنت مع من؟" نظرت إليه نظرة عامرة بالدهشة، قلت له كيف تقول هذا الكلام "أنا مسلم"، نظر لي حراجي غير مصدق وضيق حدقتي عينيه وهو يقترب منى" طيب قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" أنا تضايقت فعلا وقلت له مش قايل يا حراجي، قال لى يبقى أنت ابن كلب و"مارية" أرضعتك لبن مسيحي كما يقول الجميع، وسنضربكم مثلما ضربناكم في المسلسل، ألا تقول لـ"ماتيلدا" يا أختي، إذن أنت مسيحي يا صاحبي، تركني ومشى وهو يقول لي

fb/mashro3pdf

أني معهم وأن المسلمين سيحاربونهم عند الجبل، ولو رآني في الحرب فسيضربني معهم، كنت مغمومًا ولم أنم بعمق، كان "خليفة" صاحبي وكنت أحكي له علاقتي بـ"مارية" و"ماتيلدا"، حتى أننا كنا نتكلم عن البنت "فاطمة" التي لها مؤخرة عريضة، أبوها يملك دكان بقالة وكانت البنت سمينة من الأكل الكثير، كانت ترمي في بطنها كل ما تجده، وبطنها تتورم بالعز الذي لم نره، كنا نعرف أننا لو فتحنا بطنها لنزل منها الملبس والجيلاتي وغزل البنات ولرمحت الشيكولاتة في الأرض حتى تصل إلى حجرة الناظر، قلت "لخليفة" ما حصل بيني وبين "حراجي" وهذا عيب لأنه يظن أنني مسيحي، ضحك "خليفة" وراح "لحراجي"، جاءني متغير الوجه وقال لي" هل أنت كافر؟" أنا بُهِت من السؤال وقلت له "أنت صاحبي، كيف تصدق هذا الكلام؟"، جز على أسنانه وهو يقول لي أنني لو تكلمت على "فاطمة" المسلمة مرة أخرى فإنه سيضربني، وقال لي إن المسلمين سيضربونني لأنهم عرفوا حقيقتي، وأنني كافر، وفي حصة العلوم كان "حنا" ينظر لي ويمسك ذقنه ويسحبها ويتكلم بهمس ويقول "سنربكم يا ابن الكلب"، هل لم يقتنع بكلام "ماتيلدا"؟، ضحكت لأني أعرف أنه يتكلم بناءً على جلوسه بجوار "وصفي" وحين يكون لوحده يرتعد لو أحد قال له "بِخ"، لكن ما قاله "حراجي وخليفة" - الذي كان صاحبي - يكدس الخوف داخلي ويعلي مكانه إلى روحي، هذا الجانب سيضربني وهذا الجانب سيضربني، ربما كانت رحمة من الله وربما كان عقاب شديد، من يومها تعودت على أنني في المنتصف مابين أمي "وجيدة" وأمي "مارية"،

fb/mashro3pdf

بمعنى أنه حتى القدر وضعني على الحياد، هم قادرون على بعضهم وأنا الذي ليس لي مكان وأحارب من الاثنين، العيال لا تعرف أني لا أملك حق الاختيار لأنى ولدت مسلمًا وسأحيا مسلمًا، وحين قابلني "خليفة" مساءً وقال لي مثلما قال "حراجي" من قبل قل "أشهد أن لا إله إلا الله"، قلت في نفسي سيقول إنني خائف، وقلت في نفسي لا يمكن أن يظن أنني مسيحي، وأنا لست بخائف، قلت "يا خليفة أنت صاحبي ولا ينفع أن تقول مثل هذا الكلام"، قال لى "إنت ابن كلب لأن "حراجي" قال إنك مسيحي، وأنت لست معنا في الحرب"، وحتى لو قال إنني معهم في الحرب، ماذا سوف تقول أمي "مارية"؟ هل تقول إنني منحته حلمة صدري ليمصها ويكبر ويرجع ليضرب أبناء ملتي؟، وماذا سوف تقول أختى "ماتيلدا"؟، ستقول دافعت عنك ومنعت شر المسيحيين لتفتش عن فرصة وتضربهم، كنت أرى "وصفي" و"حنا" و"لمعي" و"شنودة" وكل العيال يلبسون وجه أمي "مارية" يقلعونه ويلبسون وجه أختي "ماتيلدا"، هل يصح أن أضرب وجه أمي؟، وهل يصح أن أضرب وجه أختى؟، هل أرد إحسانها بضربها وهي التي لم يجبرها أحد على إرضاعي؟، وهل ستغفر لي إذا ما سمعت بالموضوع؟، في آخر النهار تقابل "وصفي وحراجي" وحددوا موعد الحرب في الغد يوم الجمعة بعد الصلاة حين ترمح الشمس وراء الخلق وتدس لهم النوم، سيطلع العيال ويتجهون إلى الملعب الكبير ناحية الجبل والصخور، واتفقوا على أن الحرب ستكون بالأيدي فقط من غير أحجار ولا خشب ولا حديد، المسيحيون قالوا للمسيحيين، والمسلمون قالوا للمسلمين

fb/mashro3pdf

وأخبرتنى "ماتيلدا" ، كنت على الحياد في الفصل واعتبروني على الحياد في الديانة، معنى ذلك أنني قد أبقى بعيدًا عن الاثنين أو عدوًا للاثنين، كوني على الحياد فهذا منحني الفرصة لأقول لأبي ولأخونهم الاثنين، لم تكن هذه خيانة فلم يخبرني أحد منهم، تعكز أبي وراح لبيت "كرلس" وقال له ليمنع ما سيقع فيه الكبار بتبعية معارك العيال، وراح لبيت الشيخ "كامل" وقال له مثل الكلام الذي قاله "لكرلس" .

في اليوم التالى تسللت قبل الميعاد، كانت الشمس قوية جدا في ذلك اليوم كأنها سحبت مخزون البارحة لتستعين به اليوم، رأيت جيش المسيحيين يقترب من الملعب وبدأوا يرسمون الخطط، كان "وصفي" يمسك بفرع سيسبان مقلم ويصنع في الأرض خطوطًا لم أتبين ملامحها ، كان يشير لأحدهم ويشير للأرض فيومئ الولد برأسه مرات دلالة الفهم، قعد الكل في دائرة، رأيت "خليفة" جاء ومعه بعض العيال، وقف "وصفي" وجيشه و"خليفة" زعق وقال إن "حراجي" سيجيء، رمح جيش "خليفة" حين جرى جيش "وصفي" وراؤهم، هرب "خليفة" ومن معه، في المساء عرفت أن الشيخ "كامل" كان قد ربط "حراجي" في "طوالة" البهائم ولم يسمح له بالخروج من البيت، جاء الشيخ إلى أبي وقال له "الكلب ابنى يبحث عن المشاكل" ، طلع النهار على الناس، قمت من النوم ولأثبت لنفسي أننى مسلم صليت الصبح ركعتين، ولبست هدومي، أمسكت بحقيبتي ووضعت فيها الكتاب والقلم الجاف الذي كان خارج الشنطة حين عملت الواجب، رحت إلى بيت أمي "مارية" وأفطرت مع "ماتيلدا" لبنًا مخلوطًا بالشاي،

fb/mashro3pdf

أمي "مارية" لديها فرن وتخبز، لكنها تقطع العيش بأربعة قرون مثل صليب المسيحيين، وجارتنا "خديجة" تقطع العيش بثلاثة قرون مثل المسلمين، سرَّحت لي أمي "مارية" شعري ورشت على بدني الرائحة الجميلة، وعدلت لي شمالي من يميني في الحذاء، مشيت مع أختي ممسكا بيدها، قلت لها فلتسبقني لأني سأرجع لأنادي على "خليفة" صاحبي، مشت قدامي، رجعت وناديت عليه، طلعت أمه بعد وقت وقالت أنه مشى منذ وقت طويل، لم يكن "خليفة" يمشي من غيري، في الطريق قابلت "حراجي وخليفة" ومعهم العيال واقفين على جانب الطريق، تثاقلت خطواتي حين نظروا إلى، كنت سأجري، لكنني لو جريت فسيجرون خلفي ويعرفون أن هناك شيئا، كان وجه "حراجي" ظاهرا فيه الضرب، رأيت العيال حاوطوني وأمسك "حراجي" بياقة قميصي، قال إنهم عرفوا أننى قلت لأبي الذي قال للشيخ "كامل" عن ميعاد الحرب، وأنهم رأوني وأنا أخرج من بيت "مارية"، وإمساكي بيد "ماتيلدا"، وقبل أن أتكلم ضربوني، كسروا عظمي من الضرب، لم أقدر أن أذهب إلى المدرسة وحقيبتي تقطعت وشركوا كتبي، كنت أبكي وأعرك عيني والدم يسيل من رأسي، أخذنى أبي إلى بيت الشيخ كامل وقال له "ينفع كدا يا شيخ كامل اللى بيعمله وَلدك ده؟" قال له الشيخ كامل" والله لربيه"، أمي "مارية" كبست رأسي بالبن وربطت الجرح، لم أفكر وقتها في ألمي بقدر ما فكرت في أن مجرد ضربي هو صك اتهام واضح وشك في إسلامي، وأنهم يعتبرونني مسيحيا، في المساء جاء "وصفي" مع أمه إلى بيت "ماتيلدا"، رآني ورأسي

fb/mashro3pdf

معصوبة، ضحك وقال إن المسلمين ضربوني وأنا واحد منهم، وذكر لي أن العيال المسيحيين قالوا له "اجعله معنا في الحرب" لكنه يخاف أن أكون جاسوسا، وأنقل أخبارهم للمسلمين، وأخبرني بأن الحرب ستأتي غصبًا عن أى أحد كاره لها، مشي وتركني وأنا يصعب على الحال، كانت أختي "ماتيلدا" قد كبرت واستطال عودها، زارها خراط بنات النجع ومنحها جسما مستديرا وفارت مرة واحدة كقدر هائج، البنت استطالت وبان عودها كغصن مفرود ومسحوب بمهارة، وبانت تضاريسه واضحة أمامية وخلفية.

fb/mashro3pdf

٨

وتبدل الحال في النجع، كنا في السنة الثالثة من المدارس الثانوية الفنية الصناعية، وهى السنة التي سيموت فيها أبي، كانت هناك مشكلات يومية يشهدها النجع بين المسيحيين والمسلمين بسبب المسلسلات التي تنقل انتصار وتعذيب المسلمين للمسيحيين أو العكس، وأحيانا يضعون المشاهد وسط الأزمة، ويتركون له القول الفصل، كل حسب رؤيته، حقيقي أن التلفزيون كان ينقل لنا أن المسلم والمسيحي إخوة ويد واحدة، ولكن الطريقة التي ينشر بها الموضوع كانت توحي بأسئلة غير موجودة في المتن الرئيسي، لذلك أغلب المشكلات كانت تنشأ للانتقام للبطل المهزوم، وكثرت السجائر العامرة بالكيف والتى تزحزح الوعي إلى وعي آخر مختبئ بداخل الفرد، تنقله إلى مكان غير مكتشف من اللذة، قبل أن يموت أبي أمسكنى وقال لي سامحني، فقلت له "سامحتك يا أبي"، وكتب وصيته التي تضمن لي نصف بيتنا،

fb/mashro3pdf

وقت أن ترقرقت عيناه بالدموع جلست بجواره، ربت على كتفه ومسدت شعره وقلت له لا تخف، أنا سامحتك بقلب خالص، ومن أنا حتى أملك الزعل منك؟، أنت أبي برغم كل شيء وما حصل كان يحصل بين أغلب الآباء وأبنائهم، بكى أبي وانتقل إلى ربه راضيا عني، أبي ترك لنا عربة الجاز ندور بها على أنحاء النجع، وتم رصف الطريق وجسر المصلب بالأسفلت الناعم والذي يجعل العربات تجري بقوة على سطحه الأملس، حتى المباني تغير أغلبها وبنيت بالطوب الأحمر، وسقفت بالخرسانات، وظهرت القنوات التي يمسك بها الدش الكبير فوق البيوت، ورأينا الأفلام الجنسية والنساء العاريات وهن يراوغن الرجال المجهزين بكامل أسلحتهم للإغواء الجميل، وكنا نجلس على مقهى "البلم" الذي اشترى الفيديو، كان يجعل الصوت منخفضا ورأيت "حراجي" و"خليفة" و"وصفي" و"شنودة" وكثيرا من فتيان النجع، قال "وصفي" يومها إن "البلم" المسلم يشغل أفلام السكس، وقال "حراجي" إن معظم البنات والرجال الذين يمثلون "السكس" من أمريكا، وأمريكا مسيحية، وهنا هاج "وصفي" وهاج "حراجي"، وقمنا كلنا، وجاء "البلم" وقال " أنتم هنا لتشاهدوا أفلام سكس وليس للعبادة، وهذا المكان لا يصلح لذكر الله، اتركوا دياناتكم في البيت وتعالوا، وإلا سأسبكم فى كل مرة " وراح البلم لوصفي وقال له" أنا أشغل أفلام سكس، هل ناديتك من البيت أم أن هذا قرارك وحدك؟" وراح لحراجي، " أمريكا مفتوحة على بعضها وبالنسبة لهم هذا الأمر مهنة، أكل عيش، وأنت لا تسأل على دين من يمثل هذه النوعية من

fb/mashro3pdf

الأفلام، هناك لا ينظرون إلى الدين، لكنهم ينظرون إلى أشياء أخرى، من الممكن أن تجد مسلما أومسيحيا أويهوديا أومجوسيا أو ابن كلب ليس له ملة من الأساس، وكلهم يمثلون، أفهمت؟"، أومأ حراجي برأسه وجعل "وصفي" يقوم و"حراجي" يقوم، وقال لهم إما أن تُقبِّلوا رؤوس بعضكم أو تخرجوا من المقهى"، وفعلا قبَّلوا رؤوس بعضهم وجلسوا بجوار بعضهم "حلف حراجي "أنه مارس العادة السرية ثلاث مرات"، وحلف وصفي "أنه مارسها أربع مرات" وتطاول الصوت وجاء البلم زاعقا، "يا أولاد الكلب أنا أفعلها مرة واحدة وأكاد أتسند على الحوائط من التعب "، شرحوا لى بالكامل كيف تفعلها وتتخيل الفيديو، وتسرح مع هذا العالم المدهش، لكني ندمت بقوة على ما كان مني، وحلفت بالله أن لا أفعلها مرة أخرى، ولم أقدر على التمسك بالحلف، في يوم أمسكني حراجي ودعك ركبتى بيده وقال لي " صابونة ركبتك ليست ثابتة وتترجرج بشدة، أنت تفعلها مثلنا يا عبدالله؟!!" دهشت وقلت له أنا لا أفعل تلك العادة لأنها حرام، قال لي بسخرية "حرام في القرآن أم حرام في الإنجيل؟" لم آبه لكلامه ومشيت، هذا التطور السريع في حياة النجع أمدنا بحِرف جديدة، وتفرق الباقون من شباب النجع – بعد سفر أغلبهم – ما بين محارة وسباكة وبناء وكهرباء ونقاشة، لكن ما أغمني حقًا هو البوتاجاز، جهاز آخر به عدة عيون موصول بأنبوبة كبيرة مملوءةً بالغاز، وبدأت أعداد الناس التي تشتري الجاز تقل بقوة، وكانت مشكلة حقيقية لي، عربة الجاز لم تعد توفر مكسبا يليق بحياة، وبالتالي كان لزاما عليَّ أن أواكب تطور الحركة السريعة

fb/mashro3pdf

في النجع، باع أخي "سليم" العربة وأعطاني بعض النقود وقال لي "شوفلك صنعة"، أما "سليم" نفسه فترك لى الجمل بما حمل وسافر إلى ليبيا، استدعاه الحلم بالثراء والفلوس وتحويل البيت من بيت طينى إلى بيت بالطوب الأحمر والخرسانات التي ملأت النجع، سافر وتركني وحيدا مملوءا بالحسرة على فراقه، سافر طيبا وأخا ربما كان كارهًا لي في البداية، لكنه أحبني بحكم المعيشة، في النهاية هو ليس له غيري وليس لي غيره، أنا أعرف نفسي، أنا طيب أكثر مما ينبغي، أو ساذج، ولو فعل معي الأفاعيل وجاء يطلب مسامحتي لسامحته ولدفنت الماضي دفنا، وياليتني ما تركته يسافر، وياليتني كنت عالما بما سطر في الغيب حتى أوقفه، أمي "مارية" توسطت لي لدى المعلم "ميشيل" في نجع "الفاوي"، وطلبت منه أن يعلمني النقاشة، وافق لأنه كان يحبها قديما وهى تركته وتزوجت العم "ونيس"، وهو الذي أخبرني بهذا بعد أن عملت معه، كان يقول لي إنهم يقولون عليه أنه مسيحي لكنه ليس مسيحيا، إنه في الأساس غير مؤمن بوجود الله، كان ملحدًا صرفًا، قال لي في مرة أتؤمن بوجود الله؟، قلت له نعم، قال وما إثباتك قلت أتدري هذه "الرَّولة" التي أمسكها قال نعم قلت لماذا لا تقع من يدى؟ قال لأنك تمسكها جيدا، فنظرت إليه نظرة ذات مغزى وقلت "هكذا السماء"، سكت قليلًا ثم قال لكل واحد منا قناعاته، عرفت في البداية كيف أخلط المعجون وكيف أجهز الحوائط والأبواب والشبابيك للدهان، وعلمني المخبوء من الصنعة حتى على الصنايعية في علم الصنفرة، وقال لي، لن تجد أحدا يعلمك كما أعلمك أنا، لأنهم

fb/mashro3pdf

"أولاد كلب" يعرفون أن ربهم هو الخالق ولا يعرفون أنه الرازق أيضا، كنت أقوم بصب الزيت المغلي والزنك والإسبيداج مع الغراء وأقوم بخلطهم بنسب معينة فيصبح الناتج عجينة رخوة وسهلة الفرد على الحوائط، أتعبنى المعلم "ميشيل" وضربني عدة مرات ولكني لم أكن أشكو لأمي "مارية"؛ لكي لا تقول عليَّ "واد خرع" تحملت شتيمته بصبر وأناة، عرفت كيف أمسك بالسكين وأفرد المعجون بمهارة، كيف أدهن الشقق باللاكيه النصف لامع واللامع الكامل، ثم ترقيت معه إلى درجة صنايعي وقال لي "أنت دماغك حلوة"، علمني المعلم "ميشيل" أن أقرأ الكتب والروايات الأجنبية وأن أنفتح على ذلك العالم المدهش، عالم نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإيزابيل الليندى وماركيز وفيرجينيا وولف ودوستويفسكى، كنت أقرأ الرواية فيأخذها مني ويعطينى غيرها، كان يصرف أكثر فلوسه على شراء الكتب، ولما بدأت العمل لحسابي بعيدا عن المعلم "ميشيل" كان أحيانا يرسل إليَّ ويعطيني شققا أشطبها لحسابي أنا ويأخذ هو عمولته من الرجل صاحب الشقة، لحظتها عرفت ما غاب عن المعلم "ميشيل"، كنت أعرف تماما كيف أتعامل مع الزبون المحتمل، ودائما ما كنت أغوص في عمقه لأخرج ما ليس ظاهرا له.

عرفت أيضا أن معظم مشاكلنا في النجع لا نعرف أسبابها، لكني وعيت تماما أن اللون له دخل بهذا الموضوع، ربما لن تعرف أنك في مشكلة إن كنت لا تستسيغ ألوان تحاوطك دائما، لكنها ستدخلك وتسبب لك حالة من القلق، ربما تثور على أقل الأشياء، ربما ستشعر بذلك

fb/mashro3pdf

الوجيب المخيف، والذي سيعطيك إحساسًا أنك على أعتاب مصيبة ما، سيتكرر معك هذا الأمر كثيرا، ربما لن تجد له سببًا، لكني أعرف أنه اللون، وعلى العكس لو وجدت لونك ستستريح تماما وربما يتجاوب معك ليمنحك قدرة هائلة على تجاوز أزماتك.

كنت أحاول قراءة الزبائن نفسيًا، وعلى ضوء قراءتي أمدهم بأسباب السعادة، دائمًا ما أضع نصب عيني عبارة "الناس أذواق ولولا اختلاف الأذواق لبارت السلع"، في ذلك الوقت مات القس "أبانوب" وحل محله القس "إيليا"، وبعده بقليل مات العم "ونيس" على إثر هبوط حاد في الدورة الدموية، وهو ما سبب ألمًا قاسيًا لـ "ماتيلدا"، كنت أواسيها وأظل بجانبها وأقول لها "هذا أمر الله، وأبي مات قبلهما "وكل مَنْ عليها فان" ولما كان المعمار الحديث وقتها يطوف بقوة في النجع فقد وجدت ما يضمن لي حياة مرفهة، كنت أحصد الفلوس الكثيرة لأني الوكيل الوحيد للنقاشة في النجع، وكنت أكافئ الأخت "ماتيلدا" والأم "مارية" بأن أجلب لهما الهدايا، لكني لم أقدر على بناء بيتي بالطوب الأحمر، وجاء "سليم" من ليبيا بعد آخر سنتين قضاهما هناك، كان "سليم" قد تغير وطالت لحيته، وبدأ يتعامل معي بشكل غير معهود، قبل أن يسافر كانت "مارية" أمي و"ماتيلدا" أختي وبعد أن جاء التصق بهما لقب الكافرتين، وأنا كنت نصف كافر، كنت أعاني من وجوده معي في البيت، "سليم" جاء محملا بالمواعظ وبمسميات أخرى لكل شيء، بدأ ذلك حين كنا نأكل معا على الغداء، سألني بود، أصليت الظهر؟، قلت له لا، وبدون أن ينتظر دلق الأكل على جسدي،

fb/mashro3pdf

قام والشرر يتطاير من عينيه، "أنت كافر كافر والأكل معك حرام حرام حرام"، سألته بهدوء، الأكل معي حرام لأني لم أصل الظهر؟.. قال لي "إنه يعرف أن هناك رجلا مسيحيا في داخلي، وأني يجب أن أعلن إسلامي في كل فترة حتى أتطهر من اللبن النجس الذي يجري بعروقي"، ضحكت وقلت له إنه كان يتركني ويلعب، وأنه هو الذي قص على أذني كيف كان يعاملني وكيف كانت تعامله أمي "مارية"...

طقت عيناه شررا حين سمعني ألصق لقب أمي بـ "مارية"، وضحك كثيرا، وهو يقول إنه الآن تأكد من أنني مسيحي، ضحكت وقلت له "ألم تقل لي أمك "مارية" قبل أن تسافر، طيب يا سيدي أنا كنت مسيحي وأسلمت وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمد رسول الله"، هل أنا مسلم الآن في نظرك؟، نظر إلى عيني في شك، قال لي أنني مسلم بالقول، كنت قد مشيت حين استوقفني "لا يمكن أن تكون مسلما بالقول وحده لا بد أن تصلي وتصوم وتزكى وتحج بيت الله الحرام "قلت له وأين كنت قبل أن تسافر وكنت تاركا للصلاة؟، قال إن الله هداه، قلت أليس الذي هداك قادرا على هدايتي إن كنتُ ضالا؟، تركني وخرج، لو أنني شخص كامل العلم بالعوالم لولد لحظتها سؤال سيمكنني الإجابة عليه، ولأنني غير مدرك تمامًا للعوالم من حولي بالشكل الكافي فلن يُولد هذا السؤال مطلقا، وسأجهضه في كل مرة أرى طرفا منه يبرز مني

بعد صلاة المغرب رأيت تكوينا غريبا وأخي جزءٌ منه، رأيت حلقة لأناس يلبسون الجلباب الأبيض القصير وكلهم أصحاب لحى، وكلهم

fb/mashro3pdf

بأيديهم المسابح، رأيتهم قد اتخذوا حلقة دائرية، يجلس أخي في مركزها، وهو ينظر إلى بعد فراغي من الصلاة، رأيت في أعينهم شررا فمشيت مباشرة إلى بيتي، بالأمام كانت الكنيسة الشرقية قد بان أثر التعب الزمنى في ملامحها، بعد عدة أيام جاءنى أخى "سليم" وقال إنه مسافر إلى ليبيا، ويتمنى من الله هدايتى وأن أرجع إلى دين الآباء والأجداد، سافر "سليم" وحيدا وإن ظل الجمع الذي رأيته في المسجد قائما بعد كل صلاة.

fb/mashro3pdf

٩

كنت أستحم وقت أن جاءني صوت "ماتيلدا" صارخا

-يا عبدالله.. يا عبدالله.

كدت أخرج جريًا لكني تذكرت أني عارٍ، جففت نفسي بسرعة ولبست الفانلة والصديرى والسروال والجلباب ولم أعرف ما المعدول من المقلوب، حتى أن الجلباب أكملت لبسه وأنا أخرج.

-أمك متعبة يا عبدالله.

دخلت إلى بيت أمي، كانت حشرجة صدرها قد تصاعدت أكثر من ذي قبل، بدا وكأنها تعارك الهواء الذي لا يقبل الدخول بوفرة إلى رئتيها، أمسكت بها فاعتدلت وهى تشهق توجعا، أحضرت "ماتيلدا" شبشبها فلبسته أمي وراحت تتسند على كتفي، عبرنا من بابهم و"ماتيلدا" أمسكت معي يدها اليسرى كى لا تفقد توازنها، كان صدرها يعلو ويهبط

fb/mashro3pdf

بغير انتظام، لمحت تلك الدمعة التي سالت من عين أختى، وهى تجر أمها لتكمل السير، العربات "الكبود" تقف بالأمام غير بعيدة لصحيح الجسم، لكنها بعيدة عن أمي، تركت يدها وقلت لـ "ماتيلدا" "سأجري وأحضر عربة"، لكن يد الأم أمسكت بمرفقي وسحبتني بضعف فاستكنت ووقفت، مالت على الأرض فحاولت أن أوقفها أو أحملها على يدي، أمسكتني علامة الرفض، أطعتها وناس كثيرة من النجع كأنما انشقت الأرض عنهم التفوا حولنا، كانوا يمصمصون شفاههم في تحسر، منهم من يحاول سندها كي لا تقع مرةً واحدة فينكسر ظهرها، جمعت حروف كلامها وتوجهت إليَّ وقالت بصوت غلب عليه النشيج والضعف، "ماتيلدا" أختك يا عبدالله، وأنت أخوها، هذا ليس كذبا، أنا قمت بتعميدك معها يا عبدالله، هي أختك وأنت أخوها".

وجدت الجمع الذي كان مضروبا حولنا كخيمة مفتوحة السقف يرجع إلى الخلف، ووجدت تلك النظرة المفعمة بالكره والتساؤلات تسيل من أعينهم، لم أقف طويلا قدام كلامها، جريت وأحضرت عربة، وركبنا إلى المستشفى، في النجع مستشفى وحيد ليس به إلا دكتور واحد وهو ممارس عام، يعالج كل شيء، ويصرف علاجًا مجانيًا بقدر ما تسمح به صيدلية المستشفى، ودائما الصيدلية تفتقد الأنواع التي يكتبها الدكتور، يوجد بالمستشفى أيضا عم "عبد الجواد"، وهو ممرض ويقطع الورق للناس وينظف المكان، ومن الممكن أن يصرف أدوية من صيدلية المستشفى في حالة انشغال الدكتور، تَفَقَّد الدكتور أمي ورجع إليَّ بنظرة خائبة وقال لي" اجعلها مرتاحة بالبيت..هذا أفضل لها"

fb/mashro3pdf

حملت أمي ورجعت إلى البيت، جلست معها وقت غير قليل، كان يصلنى صوت "ماتيلدا" من الخارج

-يا يسوع، ألتمس منك الشفاء من الصدمات التي تصيبني، نتيجة الفشل والرغبات التي لا تتحقق، اشفني من الظلمات القابعة في داخلي، وبلسم الجراح المتراكمة في أعمق أعماقي"، ولما كان المساء، أتوه بكل الممسوسين، فطرد الأرواح بكلمة منه وشفى جميع المرضى، ليتم ما قيل علي لسان النبي أشعيا: " هو الذي أخذ أسقامنا وحمل أوجاعنا"،

-يا يسوع اشفِ جسد أمي، هي أمي ستأتي إليك حاملة آلامها الجسدية، فاشفها من الآلام التي تأكل جسدها.

-يا يسوع إذا كانت مشيئتك في أن أحمل صليب المرض، فإني أقبله وأسألك أن تعطينيى نعمة حمله بمحبة.

-يا يسوع، ألتمس منك الشفاء لأفراد عائلتي..أهلي..أمي "مارية".

-يا يسوع إذا كانت مشيئة الأب أن يتألموا، أسألك أن تعطيهم نعمة حمل صليب الألم بمحبة.

من خلف "ماتيلدا" تبدو صورة المسيح بتلك الهالة النورانية التي تنير خلفية العالم من حوله، لم أحفل كثيرا بما قالته الأم "مارية" من التعميد وأنت مسيحي، ربما عمدتني لتباركني إلى الرب، فكرت بفطرتها الموكولة إليها من إيمانها، عمدتني لأن التعميد في نظرها

fb/mashro3pdf

دخول إلى الأمان المسيحي، اعترافا ضمنيا يضمن لي الجنة، ربما لم تعمدني من الأساس، وقالت ما قالت لتقربني بالروح إلى "ماتيلدا"، لكني - في النهاية -مسلم وموحد بالله، ولن أرضى بغير محمد نبيا، تماما مثل "ماتيلدا"، التي لن ترضى بغير يسوع المسيح مخلصًا.

fb/mashro3pdf

١٠

جاءني الرجل الذي أدهن له شقته، نادى عليَّ كثيرا، سمعت النداء من بيت "ماتيلدا"، خرجت ووجدته أمامي.

-حين كانوا يقولون عنك أنك مسيحي لم نكن نصدق، ولكن يلزمك أن تعرف أنه لا أحد مسيحي يعمل في بيتي، وإن كان ناجح مساعدك سيكمل الشغل فأنا موافق، ولكنك لن تدخل بيتي.

-يا حاج..أنا مسلم وموحد بالله.

-لا لست مسلما..لقد عمدتك مارية..الناس كلها تقول عنك إنك مسيحي في السر..أنت منافق..تظهر لنا إسلامك وتخفي عنا مسيحيتك.

-بدون كلام كثير يا حاج..أنت في مقام والدي، قل لناجح عدة الشغل معك ولو احتجتها فسأرسل من يأخذها.

fb/mashro3pdf

-حسابك معك وشقتي عندي، سلام.

-سلام.

قالها ومضى فصبرت قليلا حتى تمالكت أعصابي وجلست على المصطبة أتنهد، سمعت صوت الباب يفتح، طلعت "ماتيلدا" وربتت على كتفى في رفق ومواساة.

- لا تغضب يا عبدالله ولا تحزن، هي مسألة وقت وفي الغد ستجد الكثيرين يطلبونك.

- لست غاضبا ولا حزينا يا أخت، وظفرك الذي تكسرينه أفضل عندي من كل عمل يبعدني عنك، وأعرف أنها مسألة وقت، بعد إذنك، سأدخل بيتي لأرتاح قليلا.

- تفضل يا عبدالله ولكن بالله عليك لا تحزن.

أغلقت الباب خلفي، واستندت عليه بظهري، وجدت ذلك الشرخ في الحائط قد كبر واستطال، نفضته عن ذهني، أنا لا يعنينى أن أترك العمل، لديَّ مخزون من النقود يكفيني أربعة أشهر، صحيح أنني لن أطلب من أخي "سليم" أي قرش، وإلا فسيعتبر ذلك وسيلة يضغط بها عليَّ لترك أختي "ماتيلدا" وأمي "مارية"، وأنا لن أتركهما ولو نمت بغير طعام، دخلت إلى حجرة نومي ونظرت إلى الخنجر المعلق في استكانة، أمسكت بعامود السرير النحاسى وبكيت، لم أكن أود البكاء، لكن وربما لطول جلساتى واحتضاني لهذا العامود أصبحت عادة، لكنني بكيت أكثر مما ينبغي، ربما خوفي على أمي وعدم بكائي بجوارها قد

fb/mashro3pdf

وجد فرصة مجانية ومدني بفائض من الدمع، انطلق في تلك اللحظة آذان المغرب، لو ذهبت للمسجد لاصطدمت بأصحاب الذقون، أنا متأكد الآن أن سيرة تعميدي قد دخلت إلى كل بيوت النجع، قلقت من مسألة التعميد، قمت وتوضأت، فردت مصلاتي وصليت المغرب وسنته المؤكدة، دعوت الله موجها طرفي للسماء، " يا الله، تعرف ما في نفسي ولا أعرف ما في نفسك وأنت علام الغيوب، اللهم إنك تعلم أنك زرعت في داخلى حبا لكل الكائنات، ولم تحدد لي من الذي عليَّ كرهه، أعلم ربي أن هذه هبة منك لقصد لا يعلمه إلا أنت سبحانك، اللهم هب لي احتمالا يفوق ما ألاقيه من وجع، وهب لي صبرا أكبر من الشدائد، وهب لي منك سلاما أواجه به حروب العالم التي تحاك ضدي، وهب لي منك قدرة تجبر كسر عزيمتي، إنك أنت السلام السلام.

سحبتنى خبطات الباب القوية، انتفضت وجريت وقلت في نفسي أمي ماتت، وجدت ابن عم نورا الصغير واقفا على الباب، كان يشير إلى بداية النجع.

-نورا أرسلتنى إليك وتقول أنها تريدك لأمر مهم.

-طيب اذهب وقل لها عبد الله في الطريق.

جلست قليلا أفكر في نورا، حبيبتي، ربما ستواسيني وتضمني إلى جناحها، وتقول لي أنا معك ضد العالم، أحبها يارب فزوجني بها بسرعة، غيرت ملابسي ولبست أجمل ما عندي، تنتابني الشكوك لأني أعرف لون "نورا"، هي تحب الأصفر الليمونى، هذا اللون غير

fb/mashro3pdf

مستقر، متذبذب، شكاك، لا يمكنك أن تفهم صاحبه، متقلب دائما، لا يثبت على وتيرة واحدة، له أكثر من رأي، يميل دائما مع التيار الأقوى، متخبط دائمًا في قراراته، هو لون يتأثر ولا يمكن أن يكون مؤثرًا، لذلك كنت أعرف أنها ليست من النوع الذي يعتذر مع علمه بخطأه، ليست من النوع الذي يعطيك حقك مع إنها تدرك أنه حقك، من الممكن أن تقف ضد أبيها وضدي وضد العالم كله في سبيل رغبة ما، رغبة ربما تكون في غير صالحها كليةً، تنظر إلى الأمور بنظرة مغايرة لكل نظرات أهل النجع، هذا ما يقلقني ويسبب لي وخزا في الروح. انتظرت حتى آذان العشاء وصليته، أكلت ما تيسر ويممت وجهي شطر بيتها، طرقت الباب وانتظرت حتى فتحت "نورا".

-تفضل.

دخلت وجلست على الأنتريه المعتاد جلوسي عليه، ورق الشجر كأنه يتطاير من الكسوة ويتناثر حولي معبئا المكان بروائح الياسمين والصندل، أغلقت عينيَّ، وفتحت صدري ليمتلأ بالروائح الجميلة.

طرق عم "عبده" اللحام الباب فوقفت، دخل ليجلس قدامي وجاءت "نورا" وأمها. كان الأب يرسم على وجهه تكشيرة واضحة، بدت مكملة للندوب التي خلفها اللحام بالأوكسجين على وجهه، لم أعرف مغزى تكشيرته ولا نظرته لبنته وزوجته، أخرج نظارته الطبية السميكة، لبسها ليكتم عنى قراءته.

دقفت في وجه عم "عبده" اللحام، حاولت أن أستشف ما الذي سمعه

fb/mashro3pdf

عنى ولا أعرفه، وما الذي أفعله وجعله ينظر إلى بهذا الشكل، دق قلبي بعنف مفاجئ، وأحسست بذلك الشعور الذي لا أعرف كنهه، تطايرت الظنون في كل اتجاه، حتى قبل أن يتكلم، ما الذي سمعه وجعله يداري تكشيرة واضحة، وما السر في ابتسامة "نورا" وزعل زوجته، أهو مسألة تعميدي أم تركي لشغلي أم شربى للحشيش في مقهى البلم أم ماذا؟

-هل صحيح أن "مارية" زوجة ونيس عمدنك؟

تنفست بعمق وقد هوى جدار ظنوني على الأرض بعدما اكتمل بناؤه، كنت أخاف أن يكون أحدهم قد وشى بي لشربي الحشيش في مرة عابرة، أو أن يكون أحدهم قد ألصق بي ما لا يوجد.

-وافرض أنها عمدتني وكنت مسيحيا مثلا. طيب أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

قلتها ضاحكا لأبين لهم أني لا أرمي الأمر في دائرة اهتماماتي، يكفينى الشهادة لكي أخرج إلى الدين الإسلامى الحنيف الذي لم أتركه من الأساس.

-كلامك غير مقبول يا عبدالله، ومادامت عمدتك إذن أنت مسيحي، والمسيحي لا يصح أن يتزوج ابنتى.

ضغط على أسنانه وهو يكمل.

-في ديننا ياعبدالله، يجوز أن يتزوج المسلم مسيحية، إنما لا يصح للمسلمة أن تتزوج مسيحيًّا.

fb/mashro3pdf

قالها وفتح قبضة يده ورأيت دبلتي ووثيقة ارتباطى بنورا تتدحرج بطيئا لتنزل من بين أصابعه إلى السيراميك وتجرى على الأرض، تدحرجت قليلا قبل أن تدور عدة مرات حول نفسها وتتوقف تماما، لثوان مادت بي الدنيا، غامت أمام عيني وأنا أنظر إلى الدبلة، رحت أتذكر أنني قوي ولا ينبغى عليَّ إظهار أي فعل يظنه ضعفا، هو ابتلاء من الله، وأنا راضٍ بابتلاء الله، وقفت كأني غير متأثر، رسمت على شفتي ابتسامة حاولت بها مداراة الوجع، لكني لا أعرف هل أفلحت في كتم تلك الرعشة التي اعترتنى، والعرق الذي طفا فجأة برغم الجو الجميل؟.

-على راحتكم.

تركت الدبلة مرمية على الأرض، وبدون أن أنتظر ردا أمسكت بمقبض الباب

-سلام عليكم.

فى الطريق كانت هناك غمامة تتصاعد إلى عيني، وتحاول الإمطار لكني كتمتها، لكني لم أفلح في كتم الاعاصير التي تهز جسدي وتحتويه بالكامل، كانت خطواتي مسرعة حتى أنني لم أقف لـ "ماتيلدا"" وهي تنادي عليَّ، وكانت تحمل الخضروات التي اشترتها، جريت إلى بيتي وجلست على السرير النحاسي ذي الأربع أعمدة وأمسكت عامود البكاء، راحت الدموع تسح من عيني، لو أن أحدهم كان مسيحيا وأسلم لاقتنعوا بإسلامه، هل كانت "نورا" تأخذ الموضوع على أنه ثغرة تبيح لها التخلص منى؟ أم أن أباها كان يرفضني فعلا لكوني تعمَّدت كما

fb/mashro3pdf

قالت الأم، "نورا" لم تكن مقتنعة بمسألة أن أقول لـ "مارية" أمي ولـ"ماتيلدا" أختي، ماذا أفعل الآن وماسورة المحبين تفقد خيوطها واحدا بعد الآخر، لم يبق لي إلا الأم والأخت، حتى أخي لم يعد يحبني، رجعت مرة أخرى إلى الدائرة التي تعشقني، في المنتصف تماما بين كل شيء ولا شيء، لست مسيحيا من وجهة نظر المسيحيين ولست مسلما من وجهة نظر المسلمين، من أنا إذن ولماذا يلصقون بى كل ما يحبون توهمه ورؤيته؟، سمعت الصرخات التي انهالت على مسامعي، تلتها طرقات عنيفة على باب بيتي، مسحت دموعي بكم جلبابي، جريت إلى الخارج لأجد "ماتيلدا" واقعة أمام بيتي، حملتها وأدخلتها بيتهم وسط نظرات الناس المتسائلة، كانت أمي "مارية" مسجاة كيفما اتفق، واكتسى بدنها بتلك الزرقة وشحب وجهها تماما، باتت معالم وجهها كأنها تفصح عن نظرة لم أعهدها فيها، حين أفاقت "ماتيلدا" راحت تطلق الصرخات يمينا وشمالا، أصبحت وحيدة برغم وجودي إلى جوارها، كما أصبحت أنا وحيد برغم وجود أخي إلى جواري، يا إلهي المصائب لا تأتي فرادى، سمحت لنفسي بإطلاق مخزون الدمع، كنت أبكي فقدى "نورا" وفقدي أمي مرةً واحدة، ربما ترجع خطيبتى ذات يوم وهى نادمة على ما فعلت، ولكن كيف ترجع أمي "مارية"؟، بكيت بقوة حتى أن "ماتيلدا" قامت دائخة لتسكتني ولم تقدر، قعدت بجوار أمي الميتة وملأت الأرض دمعا، ما الذي فعلته أنا يارب حتى تكافئني بكل تلك المصائب؟، استغفرت الله وامتثلت للأيدي التي تقيمني، المسيحيون كانوا يحتضونني، وهم يبكون والمسلمون يستغربون بكائي

fb/mashro3pdf

العنيف على "مارية" ، لكنهم لا يعلمون بـ "نورا" ، ماتت خطيبتي وماتت أمي ومات العالم كله من حولي إلا "ماتيلدا" ، جاء المعزون، وجاء خدم الكنيسة بالصندوق المحشو بمادة الساتان، ألبسوا الأم برنصًا طويلًا تمهيدًا لنقلها إلى الكنيسة، قام الخدام والشمامسة بتلاوة المزامير، وقام الكاهن بوضع الصليب مع الأم، وحمل مجموعة من الرجال الصندوق باتجاه الكنيسة، راح "وصفي" إلى "ماتيلدا" وقال لها إنه بجانبها لو احتاجت شيئا، قالت له معي أخي "عبد الله" ، لمحت الغيظ مرسوما على وجه "وصفي" ، وكان يرمقني من آن لآخر بنظرة عدائية، دخلت الكنيسة ودخلوا بأمي إلى إحدى الحجرات وجمع غفير من ناس يقرأون المزامير، راح الخدام يشعلون الشموع التي ألقت ظلالها على المكان فتحولوا إلى عمالقة سوداء يزاحمون بعضهم على الجدران، خرجوا بالصندوق ووضعوه على مكان مرتفع وتلا الكاهن صلاة الميت، راحوا يترنمون بالمزامير موافقين الصوت بتمايل خفيف من الرؤوس، وأنا قرأت عليها سورة "يس" ، كنت أعرف أن "يس" لما قرأت له، تركتهم وهم يحملون الصندوق مرة أخرى باتجاه المقابر، ذهبت إلى بيتي، راحت أمي وأصبح البيت فارغا على "ماتيلدا" ولم أعرف كيف أواسيها، أتتني "نورا" وراحت تتلاعب قدامي كطفل نزق، تدور هنا وهناك وأنا أتابعها بعيني، ودهشت حين رأيت الدمع يتقافز مني، ألم ينضب مخزوني بعد؟!،

"هل تقبلي الزواج مني يا ابنة عمي"، رأيت البسمة وهي تعلو شفتيها وقالت بصوت متهدج أنها مبسوطة وليست مبسوطة، دهشت وقتها

fb/mashro3pdf

وقلت كيف مبسوطة وغير مبسوطة؟، قالت هي أحاسيس لا أعرفها يا ابن العم، لكني موافقة على الزواج، طرت يومها من الفرحة وجريت إلى أمي وأختي وقلت لهم، احتضنتنى أمي وهي تبكى وقالت والله وكبرت وستتزوج يا عبدالله، تعلقت "ماتيلدا" بكتفي واحتضنتني من الخلف وهى تبكي، فرحانة لك يا أخويا، قبلت يد أمي وجبهة أختي، ماتيلدا كانت مبسوطة جدا، قالت لي في الغد سأذبح لك البطة التي لدينا، أنت عريس الآن ويجب عليك أن تتغذى"

أيقظتني الخبطات على بابي، فكرت ألا أفتح، ربما أفاجأ بمصيبة أخرى، لقد خلصني الله من كل ذنب سأفعله في المستقبل، لكني قمت وفتحت لأفاجأ بوصفي،

-إزيك يا عبدالله

-الحمد لله يا وصفي..خيرًا، هذه هي المرة الأولى التي تخبط فيها على بابي.

- بصراحة لا أنا ولا أحد كان يتوقع أنك تحب "مارية" بهذا الشكل، أنت بكيت عليها بكاءً أوجعنا كلنا، لكني أريد أن أقول لك إن "ماتيلدا" في حياة أمها شيء، وبعد موت أمها شيء آخر، لا يصح طبعا أن تدخل إلى البيت وتخرج كما كنت تفعل في حياة أمها، أنا أعلم أنك تفهمنى جيدا.

-فهمتك يا وصفي وأنا مقدر لكل هذه الأمور.لا تقلق.

-ممكن أسألك سؤال يا عبدالله؟

fb/mashro3pdf

-تفضل الأول ادخل، واشرب الشاي ونتكلم بعد ذلك.

-لماذا أنت طيب زيادة عن اللازم؟

كتمت ضحكة كانت تخرج رغما عني.

-الله خلقني هكذا يا وصفي، وبصراحة أنا لا أحكم على العالم مثلكم، ما يعنينى هو التعامل فقط، لكني لا أنظر لأي شيء آخر.

-أتعرف يا عبدالله، لو أنني مكانك على ما فعلته معك، لكنت ضربتني بالمركوب القديم.

-طيب الحمد لله أنت لست في مكاني.

-طيب سلام الآن ياعبدالله .

-سلام يا وصفي.

مشى وصفي، ورجعت إلى سريري لأجد "نورا" لازالت تتقافز من عامود إلى عامود وتتأرجح بين الأعمدة الأربعة، تمرق كطيف يتلاشى حين أبتعد عنها، بالنسبة لي كان شغلي يأخذني من التفكير الكثير في مصير لا أعرفه، كان يسحبني مني ويجعلنى أفكر فقط في الشغل، أتلهى بالحديث مع ناجح وأترك العالم بما فيه لرب العالم، يدبرها كيف يشاء سبحانه، الآن الفراغ يحاوطنى، ونورا تستحن الفرصة لتلاعبنى بطيفها، حاولت أن آكل، لكن الغصة تسد حلقى، خرجت من بيتى وانتظرت مجئ "ماتيلدا" على المصطبة، لم أنتظر كثيرا جاءت من الشرق حيث الكنيسة، يتبعها كثيرون من المسيحيين، سلمت عليَّ.

fb/mashro3pdf

-الكنيسة أنزلت علينا غبارا كثيفا من السقف يا عبدالله، والقس "إيليا" قال أنها ستهدم قريبا وستبني بالشكل الجديد الذي يناسبنا الآن..

قالتها ماتيلدا وهي واقفة بجواري، هذا الأمر لم يكن يعنيني، بنوها أو تركوها.

-المهم أنتِ بخير يا "ماتيلدا".

-بخير يا أخي طالما أنت بجواري، بعد إذنك لأن الحريم سيدخلون لنجلس مع بعضنا وسأكلمك قريبا، عبدالله، لو احتجت شيئا فهذا كان بيت أمك وهو الآن بيت أختك.

أومأت برأسي دلالة الفهم، قامت من جواري وتوجهت إلى النسوة الواقفات وفتحت الباب ليبتلعهم البيت.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

١١

خبطات الباب سحبتني من نومي بقسوة، لم أعرف كم الساعة الآن، لكن الطرقات كانت كبيرة وخشنة و"ماتيلدا" خبطاتها رقيقة، وما الذي يجعل "ماتيلدا" تخبط على باب بيتي في مثل هذا الوقت؟، ما الأمر الذي لا يمكنه الانتظار للصباح، فتحت الباب وأنا أدعك عينيَّ، كان هناك رجل بذقن طويلة وله ملامح تشبهني إلى حد ما، كان "سليم" أخي، فتحت ذراعي ليدخل بينهما بفرح، لكنه تجاهلني بقسوة ودلف إلى البيت، أغلقت الباب بينما كان يسند حقائبه، وغيظ ينبت بداخلي لكني تجاهلته.

-هل الذي سمعته صحيحًا؟

-صحيح، لقد فسخت خطبتي من نورا.

-مالي أنا ونورا..هل صحيح أن "مارية" عمدتك ؟

- وافرض أنها عمدتني، ماذا في ذلك؟، ثم إنه خطأك، ألست أنت الذي.....

fb/mashro3pdf

قاطعني بصفعة قوية تعاونت مع النوم المترسب ببقايا البدن لتطيح بي إلى أرضية الغرفة، جرى "سليم" وسحب الخنجر المعلق بحجرتي، استله من جرابه ووضع حده على عنقي.

-أقسم بالله العظيم إن ما شهدت الآن لأذبحك بخنجرك هذا.

تشهدت بسرعة مفزوعا فقام من على صدري وهو يعيد الخنجر إلى جرابه.

-نحن نجاهد هناك ضد الكفرة، نجاهد لإعلاء كلمة الله، ويقولون لي أتجاهد وأخوك مسيحي متعمد.

-إذن أنت تجاهد أمام أخوك؟

-وأجاهد أمام أبي نفسه لصالح ديني.

سكت قليلا ووجدت خيط من دم سال من بين شفتي ..قلت صارخا:

-بص يا سليم، أنا لم أقل لك اتركني على المصطبة حتى تراني "مارية" وتشفق على حالتي، ولولا تركك لي لما وصلنا إلى أن تصبح "مارية" أمي و"ماتيلدا" أختي، ولارتكنوا تماما إلى صلة الجار بالجار.. من الذي سمح لها بإرضاعي غيرك، وهل كانت مجبرة على إرضاعي لولا ....

-دعنا من الذي فات، نحن أبناء اليوم، ومن اليوم لا توجد "ماتيلدا"، لا توجد "مارية"، وإن كنت تريد ذلك فهو حقك وأنا لن

fb/mashro3pdf

أمنعك، الباب يتسع لجمل، لكني لن أسمح لك بإدخال أحد من أبناء الصليب إلى بيتي ولعلمك العام، أنا لن أسافر مرة أخري، سأتزوج وأعيش هنا

-"ماتيلدا" أختي غصبًا عنك، "ومارية" أنا رضعت من لبنها أكثر من مائة مرة كلهم مشبعات، أساسا أنا لم يكن لي غيرها في الوقت الذي تنكرت لي فيه مع أبي، كانت تمنحني حق "ماتيلدا" وأنا لست بناكر جميل لأنكر فضلها وسأظل..

-إذا كان هذا تفكيرك للنهاية فنحن لسنا إخوة يا "عبدالله"، تأكل لوحدك وتشرب لوحدك وكأني لست هنا، اعتبرني مسافر، إنما لو رأيت مسيحيا دخل بيتي سأضربك بأي شيء في طريقي، وسأطرده من داري، انتهى الكلام يا صاحبي.

تركني وفتح باب غرفته فتعالى الغبار من داخلها، خرج ليمسك بالمقشة ويبدأ في كنس الأرض، تركته ومضيت إلى غرفتي، علقت الخنجر مكانه السابق، جلست إلى جوار عامود البناء، فردت جسمي وظللت ناظرا إلى سقف غرفتي، كان الجير قد سقط أغلبه وبان الجريد من خلال السقف واضحا وجليا، الآن فقدت أخي أيضا، من لي أفقده ثانية في هذا العالم؟، خرجت إلى السقيفة لأفاجأ بنور الفجر قد لاح من الفاصل الذي كون شرخا، شرخا في الحائط وشرخا في نفسي، توضأت وفردت مصلاتي وصليت.

- أليس من الأفضل أن تصلي في المسجد، أدَخَل تفكيرك أن حيلتك

fb/mashro3pdf

تنطلى عليَّ؟.

فرغت من الصلاة وقمت إلى سريري النحاسي من غير أن أتكلم، في الصباح خبطت "ماتيلدا" على بابي، كنت أعرف أنها ماتيلدا، منذ وفاة أمها وهي تحضر لي الإفطار يوميا، فتحت لأجدها تحمل كوب اللبن وكوب الشاى وبعض الكعك، أخذتهما منها شاكرا، خرج أخي من حجرته مغبرا تماما وذقنه مليئة بالتراب.

-إزيك يا سليم حمدا لله على سلامتك.

نظر إليها شزرا ولم يرد، نكست رأسها، وقالت أخبط على الباب لآخذ الأكواب، حين تنتهي من إفطارك.

-لا تأخذي على خاطرك يا "ماتيلدا"، هو متعب فقط من السفر ولم ينم منذ البارحة، كان ينظف غرفته من التراب، و....

-لا تبرر يا عبدالله.. المهم لو ذهبت معي مريم تمام، أما لو لم تذهب معي فربما أجيء إليك لتوصلني إلى قبر الأم، ومن المفترض أنهم سيفرغون صندوقها ويضعوا عظامها مع العظام القديمة، وأنت تعرف أنى لى مدة كبيرة لم أقم بزيارتها.

-حاضر يا "ماتيلدا"

مشت "ماتيلدا"، دخلت بصينية الشاي واللبن، "سليم" خرج من الحمام واقترب مني، ركل الصينية بقدمه بحدة، اندلق اللبن والشاى وامتزجا في السماء قبل أن يهبطا ويسيلا على الجدار، وقطرات منهما

fb/mashro3pdf

طرطشت على جلبابي.

-أنا قلت لن نأكل مع بعضنا، لكنني لن أسمح لأي طعام مسيحي بالدخول إلى بيتي، أنت لا تعرف ماذا يقرأون عليه أو ماذا يدسون فيه.

نظرت إلى وجهه بغضب، و"سليم" أيضا كان ينظر إليَّ، مرت فترة ونحن نوجه نظراتنا إلى بعضنا بغير كلام، مشى من قدامى ودخل غرفته وأغلق بابها بعنف، الكوبين كسرا، ولم أعرف ماذا أقول لـ "ماتيلدا"، جلست بجوار الزير وهو ينقط في الكوز الصفيح برتابة، سندت ذقني على راحة يدي ورحت أفكر، سمعت صوت بابه يفتح.

-أنا أعرف أنك تكرهني، لكن الله والإسلام أهم مني ومنك ومن أى أحد آخر.

-أحب أن أقول لك شيئا يا سليم.

-قل، لا يوجد شيء يمنعك من الكلام.

قالها وهو يبحلق في عيني بلمعة غريبة، قمت ولملمت كسر الكوبين والكعك الذي تناثر، وأمسكت بالصينية وفتحت الباب الخارجى، وقبل أن أخرج من الباب التفت إليه.

-الدين المعاملة يا سليم..الدين المعاملة.

وسحبت الباب فدار قائمه في الكوز الصفيح مصدرا حشرجة قوية.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

١٢

منذ وفاة الأم "مارية" ولم يطلب أحد مني دهان شقته، وقت طويل مر ومازال طيف نورا يخايلني، تطلع لي من كل اتجاه وأتحاشى في أثناء سيري أن أرى أمها أو أبيها أو حتى أراها هي قبلهم، كنت واثقا أنها سترجع إلي مرة أخرى، وسأملي عليها شروطي، أنا ليس لي شروط، لكنها ستقبل بـ "ماتيلدا" وزياراتها على الأقل، أيام كثيرة مرت لا أعلم عددها منذ مجيء سليم، وبمجيئه تحولت حياتي إلى جحيم لا يطاق، كرهت البيت بما فيه، بت أجلس على المقاهى وأسهر كي لا يشخط ويزعق على أقل الأسباب، وبالرغم من كل ذلك، فهو أخي ويجهز لزواجه، ويبحث عن بنت الحلال، ولن أدخر ما في وسعي ليتزوج وأفرح به ليلة دخلته، ستتغير كل أموره بعد الزواج، سيهدأ ويلين تمامًا، زهرة شبابه قطفتها ليبيا وهو يجهز الفلوس للزواج ولمشروع صغير يكفل له حياة آمنة ومستقرة، حين يكبر المرء في السن بغير زواج تكون هناك ترسبات في وعيه الداخلي تخرج بصورة ما، زعيق، شتيمة، بكاء، أى شيء، وكلام الناس "يزيد الطين بلة"، "تزوج قبل أن بفرغ ماؤك، لن

fb/mashro3pdf

تجد غير المطلقات حين تكبر في السن، سنينك تجري وستندم على كل يوم لم تفكر فيه بالزواج، وأشياء من هذا القبيل"..إنما لا بد للكبت أن يخرج بصورة ما، وبإزالة السبب الفعلى سيروح الكبت، وسيرجع سليم لعقله وربما يحتضنني في يوم من الأيام كما حدث مع أبي ويقول لي سامحني يا أخي ويقبل رأسي، لحظتها سأقبّل رأسه أيضا لكني سأقول له "ماتيلدا" أختي، سيقول "ماتيلدا" أختك وأختي أنا أيضا، لكني في قرارة نفسي أعرف أنها توهمات، ولو سألني أحدهم ما هو لون سليم، سأقول البني الغامق، لون كئيب، لا يحب العالم ويشعر دائما أنه ضيف غير مرحب به، لون القلق والتوتر والعواصف الهوجاء.

ضايقتني مسألة أني بلا عمل، رحت إلى المقاول "الحجازى" وطلبت منه أن أعمل في الخرسانات، رفض تماما، كنت أعرف أن "البلم" محتاج لصنايعي بوفيه في المقهى الذي يملكه على طرف النجع، رحت له، مع أنى أعرف البلم وأعرف أنه يتشدق بلا فرق بين مسلم ومسيحى، لكن إن وصل الكلام إلى حد التطبيق الفعلى، فالحقيقة ستلوح على صفحة الوجه، وكنت أعرف مسبقا أنه لن يقبل بعملي معه برغم احتياجه، جاءتني "ماتيلدا" وحلفتني بأمي الغالية أن لا أكذب وسألتني "أنت معك مصاريف؟" حلفت لها "أني أملك زخيرة جيدة للأيام الصعبة"، أعرف أن لديها إرثًا من أمها يقدر بالكثير، لكنها ستتزوج قريبا ومن المفترض أن أساهم معها في زواجها، فكيف أقبل بأن آخذ إرثها، وضاقت بي الدنيا الوسيعة، وفكرت في الهجرة إلى أي مكان، لكن "ماتيلدا" وحيدة ومن لها غيري؟، وفكرت في الموت، لكن

fb/mashro3pdf

الله و"ماتيلدا" أيضا وقفوا كمتراس متين بيني وبين تفكيري، انكمشت قدر المستطاع في سريري، خبطات على باب بيتي، كدت أتوجه لأفتح الباب لكني رأيت باب "سليم" يفتح، لا بد أنه أحد أصحابه، لكني وجدته يعود وحده ويشير إليَّ.

-هناك واحد من دينك بالخارج، ولو سمحت لا تجعله يدخل إلى هنا، أولاد ستين كلب.

قمت لأجد "وصفي" واقفا بجوار الباب.

- قل لأخيك أساسا وصفي لا يحب بيوت المسلمين، هو يكرهكم بكل ما فيكم، وسبه لي لن أنساه أبدا، وما جاء بي هنا إلا الشدة، أنا جئت إليك أطلب منك يد "ماتيلدا" للزواج، هي لن ترضى بغير رأيك لإتمام هذا الموضوع، وأنا لا أعرف كيف لي أن أطلب يد مسيحية من ديني من مسلم ليس على ديننا أساسا، لكنها رغبتها، ولولاها لما رأيت وجهي أبدا على بابك، وكلام أخيك دين في رقبتي سأريه وأريك إياه يوما ما، هاه ما رأيك؟

-ما هو رأي "ماتيلدا" أولا، إن كانت هي موافقة فأنا موافق، وإن كانت غير ذلك فأنا معها أيضا.

- إذن فأنت معها في رأيها، هذا جميل.

اقترب مني "وصفي" واحتضنني بقوة وهو يقترب من أذني.

-سيأتى اليوم الذي أذيقك فيه المُر أنت وأخيك مقابل ما

fb/mashro3pdf

سمعته اليوم، وأعدك بأن الذل الذي رأيته من "ماتيلدا" ومنك سأرد عليه، ولو قلت لـ"ماتيلدا" هذا الكلام والمسيح لأقتلك.

سحبته ناحيتي واحتضنته وأنا أقترب من أذنه.

-أنا لا أهتم لا لأمرك ولا لأمر أخي، أنتم الاثنين ستُحرقون في نار جهنم إن شاء الله، وتهديدك هذا امسح به مؤخرتك، أنا لا أخاف منك ولا منه، وإن لم أقل لـ "ماتيلدا" فهذا ليس خوفا منك، لكنه تقديرا لأختي فقط، الجزء الصغير الذي أحبه في هذا العالم بما فيه، ابعد من هنا ولا تريني وجهك مرة أخرى، في داهية أنت وسليم.

ضيقت حدقتي عيني و"وصفي" ينظر في وجهي وهو يتراجع إلى الوراء، أمسك ذقنه بيده كأنه يقول الأيام ستجمع بيننا، لكنني لم أعره اهتماما، دخلت إلى بيتنا ووقفت أمام حجرة سليم.

-بص يا عم سليم، هذا البيت أنا لي النصف فيه، وأنا لن أفرط في حقي أبدا، حتى ولو لك أنت، ومن ناحيتي سأحضر إلى بيتي من أراه جديرا بالدخول، وأنت تحكم على نفسك فقط وليس علي.

قام سليم وخرج من الغرفة وهو ينظر باتجاهي.

-يا أخي لا تتخيل كم أنا مبسوط لأنك قلت هذا الكلام، وفرت على نفسي تعب شديد في اختيار الصيغة المناسبة لما سأخبرك به الآن، بص يا عم عبدالله، ستأخذ أنت نصف بيت الذي هو لك ولا أنكر عليك ذلك، ديني قال لي إن لك نصف البيت، بحسب مراث أبيك، وأنت ذكر مثلي بما لا ينقص ولا يزيد مني، لكني في الغد سأحضر

fb/mashro3pdf

المعدات التي ستقوم بهدم نصف بيتي تمهيدا لبنائه بالحديد المسلح والخرسانات، وطبعا أنت تعرف تماما أني لو قسمت البيت بالطول أو بالعرض، في كلتا الحالتين أنت في الشارع، لأن تضاريس بيتنا مربعة والطول مساو للعرض، ومن سوء حظك أنني تقدمت لطلب يد فتاة ووافقت، شريطة أن أبني بيتي بالطوب الأحمر، وتعرف أني أريد الزواج، وتعرف أني مضطر لما سأفعل، إذن فلتبحث لك عن بيت تنام فيه، أو نم في نصفك لن أمنعك طبعا، وكيف أمانع وأنت ستصبح حارسًا لبيتي؟.

وضحك ضحكة قوية مليئة بالسخرية، ولساني لا يعرف كيف يرتب الحروف في كلمات تناسب الوضع.

-آه، نسيت، أنا تقدمت لوحدة وفرحت جدا، هل تريد أن تعرف من هي، حسنا، إنها نورا، نعم هي نورا ابنة عمك عبده اللحام، أتعرف لم تركتك نورا؟، لأنك مسيحي صرف، أنا وهي نعرف ذلك، مسيحي وتحاول أن تبرهن على أنك مسلم بعدة صلوات لا خشوع فيها، وأكيد أنت تعرف أننا لا نزوج بناتنا لمسيحيين، وتعرف أيضًا أني لو أحببت أن أتزوج بـ "ماتيلدا" فهذا يجوز لي شرعا، أيضًا قالت نورا أنك ساذج وليس لك شخصية.

كان هذا أكثر مما أحتمل، وقفت وشعرت بأن الجدران تقترب، وأن الأرض تعلو الحوائط، وأن الخنجر المقلوب اعتدل بطريقة ما وأن سريري النحاسي باتت قوائمه إلى الأسفل، وجاء الضباب ليخفي

fb/mashro3pdf

معالم الدنيا.

fb/mashro3pdf

١٣

أفقت لأجدني ملقى على سرير أبيض، في حجرة بيضاء، ورجل يلبس الأبيض يعبث بشيء ما بجواري، على الجانب الآخر كانت "ماتيلدا" جالسة والدكتور يتأهب ليغرز "الكانولا" في وريدى.

-أين أنا؟

-كنت واقعا في بيتكم وأخيك نادي علي فأحضرت العربة وحملك السائق وأحضرتك إلى هنا، كنت أتوقع من أخيك أن يحضر معك على الأقل.

لتوي تبينت ملامح الدكتور واستعدت الذاكرة، كانت هناك كانولا موصولة بساعدي، والجلوكوز معلق ويصب مياهه في جسدي، تصاعدت تلك الغصة إلى حلقي وجاءت تلك القبضة الباردة لتعتصر صدري، ما الذي فعلته ليقتلني أخي، وكيف أتصور أن تكون "نورا" في أحضانه بعد أن تخيلتها في أحضاني، كنت عاقدا الأمل على رجوعها في يوم ما، قتلتني "نورا" وقتلني أخي، لكن هذا خطأي منذ البداية، لم

fb/mashro3pdf

يكن ينبغي عليَّ محبتهم بهذا القدر، كان ينبغي علي معاملتهم بالمثل، وكيف أعاملهم بالمثل وفاقد الشيء لا يعطيه، كيف أكون قاسيا وأنا أشفق على القطة حين تموء ليلاً من قلة الأكل ولا أعرف كيف أنام وهي جوعى؟، وكيف أكون شريرًا وضميرى يقتلني إذا ما أخطات في حق أحدهم في الكلام ولا يأتينى النوم إلا إذا سامحني؟، وكيف لا أكون محبًّا للخير، وإذا رأيت أحدهم يمر بكربة ما لا أستطيع أن أنام بغير أن أفك كربته؟، أو أحاول على الأقل، ما كان ينبغي علي أن أكون بهذا العالم، وما كان ينبغي على أخى أن يكون بهذه القسوة، وما...

-حمد الله على سلامتك.

قاطعت "ماتيلدا" تفكيري فالتفت إليها، كانت عيناي قد فتحتا الطريق لبوابات الدمع حتى ظننت أن "الجلوكوز" يصب في عيني التي تفرغه مباشرة.

-يا حبيب أختك، مالك يا عبد الله؟

حكيت لها مختصرا ما كان من "سليم" و"نورا"، شهقت بقوة وهي تضع يدها على فمها، وراحت دمعة تسيل منها وهي تستمع:

-سأبحث لك عن مكان تنام فيه وأرجع إليك بسرعة.

ناديت عليها بصوت ضعيف لكنها غادرت مسرعة، جاء الدكتور لينظر إلى المحلول الذي أوشك على الإنتهاء، رفع "الجلوكوز" و"الكانولا" من ساعدي

fb/mashro3pdf

-سلامتك يا عبدالله، ألف سلامة، حين جئت كان عندك هبوط حاد هذا هو المحلول الثالث الذي أفرغته في جسدك.

-تسلم يا دكتور.

حاولت أن أنقده أجره لكنه أخبرني أن ماتيلدا دفعت له.

خرجت من المستشفى وتوكأت على نفسي، الشمس تغرق عيني، رفعت يدي أتقي الشمس والأخرى أتسند بها على الحوائط، جلست قليلا تحت جدار، كانت الدنيا تميد بي وأنا أقاوم السقوط، استعدت بعضا من رؤيتي وصفائي وقمت أتعكز على الجدران التي تقابلني، ركبت العربة التي تتوجه إلى النجع، نزلت بجوار الميدان الوسيع وسرت باتجاه البيت، هالتني كمية الغبار المتصاعدة ورأيت "اللودر" وهو يجتث ولادتي وطفولتي وشبابي، رأيت أخي "سليم" واقفا وبجواره أناس يكلمهم، كانت العربات تحمل بيتنا وتغادر لتدخل عربة أخرى تحت جسم اللودر فيرفع سكينته محملة بذكرياتنا، فرحنا وحزننا، ألمنا وراحتنا، وقفت مندهشا حين تبينت لي "نورا" وهى واقفة مع "سليم" وهو يشير إلى المبنى ويضحك وهى تضحك، وعم "عبده" اللحام واقف بجوارهما معطيا ظهره لي، تبينت الشرخ الكبير في جدار بيتنا قد لاح للناظرين من الخارج، باب بيتنا ملقى في الركن، تقدمت بخطى قلقة، رآنى "عبده" اللحام أنظر باستغراب إلى ما كان بيتي.

-أشياؤك موجودة في الحوش بجوار الفرن.

كان صوت "سليم" ساخرا وقاسيا، تجاهلت الغبار الذي يتصاعد

fb/mashro3pdf

بحدة حين يسكب اللودر "كبشته" في العربة الكبيرة، تحاشيت النظر إلى "نورا" وحاولت بقدر الإمكان أن تكون خطواتي متزنة وسط الطوب المتناثر، فتحت باب الحوش فوجدت ملابسي مركونة في صرة من إيشارب قديم لأمي "وجيدة"، فتحت الصرة لأجد خنجري وملابسي، سريري النحاسي ملقى في آخر الحوش بجوار سرير "سليم" القديم والبوتاجاز والغسالة، أمسكت صرة الملابس وتوجهت خارجا، نظرت بطرف عيني إلى "نورا" فوجدتها تنظر ناحيتى مع أبيها "عبده اللحام و"سليم".

-حاول أن تُطمئنا عليك وأرسل لي بعنوان المكان الذي ستنام فيه بغرض لو احتجتك في شيء.

لم أرد عليه وسرت باتجاه الميدان، إلى أين المسير يا "عبدالله"؟ كل بطن تلفظك كطعام مسموم، إلى أين وأنت مشرد ما بين أخ مسلم وأخت مسيحية وعالم لا يعترف بك؟، خلقت وحيدا وعشت وحيدا، وحين فتحت الفرحة ذراعيها بإتجاه الأم والأخت، أغلقتها عليك باتجاه الأخ والحبيبة، ما الذي يجرى في هذا العالم؟، ولماذا لا يكونون مثلي؟، ولماذا لا يحبونني مثلما أحبهم؟، ولماذا يحدث لي ما يحدث من أقرب الناس لقلبي؟، رفعت طرفي باتجاه السماء، كنت أود مخاطبة الله في عليائه، "دعوتك يارب أن تجعلني محبا للعالم برغم قسوته، ونسيت يارب أن أدعوك أن تجعل العالم يحبني أيضا، ودعوتك يا رحيم أن تجعل احتمالي أكبر من عجزي، وجعلت عجزي أكبر من احتمالي، أكان لزاما عليَّ يارب أن أولد وأنا مكروه، وأن أعيش وأنا ملقى بين عالمين

fb/mashro3pdf

كلاهما يرفضني، وأن أكون لعنة وأصاب أنا بها...

-يا عبدالله..يا عبدالله.

التفتُّ لأجد "ماتيلدا" وهي تجري ناحيتي، وقفت قليلا أنتظر آخر المحبين ومن بقي لي في هذا العالم، بقاء مؤقت فلابد لها من الزواج قريبًا، حينها ستنتهي علاقتي بها كأخت، وسأضمها رغما عني إلى قائمة الراحلين، لكنها أقسى الراحلين، سترحل وهي باقية كأخت وحبيبة، سترحل لكن جسدها باق، وسأعتاد على غيابها، وستفتح برؤيتها لذلك الجرح الذي سيكون بداخلي، مثل ذلك الشرخ الذي كان ببيتي، وستجدد جرحها في كل مرة جديدة أراها فيها.

وقفت بجواري واستندت على ركبتها بيديها تلتقط أنفاسها كأنها تصلي صلاتنا.

-أنا.. وجدت لك.. مكان ..ستنام فيه، وسأكون مطمئنة فيه عليك، هو في نجع الرشايدة، عمي هناك يملك ورشة نجارة، ويحتاج إلى "ستورجى" ليدهن له الأبواب والشبابيك التي يصنعها للناس، وحين اقترحت عليه أمرك رحب تماما، والجميل في الأمر أنه يملك غرفة فوق السطح، ستكون مكانًا أمثل لنومك بدون قلق، ووضع لك فيها سريرا، واحتياجاتك لتصنع كوب الشاى.هه ما رأيك؟.

لم يكن بيدي أن أقبل أو أن أرفض، فكل الإحتمالات تشير إليها، خاصة وأني لا أعرف إلا "ناجح" الذي كان مساعدي في شغل الدهانات والباقين "خليفة" و"حراجي" وغيرهم لن يقبلوا بوجود مسيحي

fb/mashro3pdf

ببيوتهم.

-موافق يا "ماتيلدا".

-هيا بنا يا عبدالله وأنا سأذهب معك إلى هناك.

***

كان المعلم "ميشيل" رجلا كبيرا يكاد يتخطى الستين من عمره، لديه بنتان على مشارف الزواج، وابن وحيد يعمل معه في الورشة، ترك عمله وتوجه معي إلى بيته، صعدت معه منكسا رأسي على السلم حياءً، البيت من طابق واحد لكن السطح كان مُسورًا من الخارج وبه غرفة وحيدة مسقوفة بالصفائح والأخشاب، الجدران مبنية بالطوب الأحمر وليطت بالأسمنت، الحجرة بها سرير صغير وتلفزيون وطرابيزة صغيرة، وأنبوبة ذات عين وحيدة وبرطمانان للسكر والشاي وملعقة صغيرة وكوبين، رميت الصرة على السرير الصغير وجلست على المرتبة التي تغطيه ومن فوقها بطانيتان قديمتان.

- ستنام هنا يا عبدالله، دورة المياه التي ستقضي فيها حاجتك بالخلف، وهي مزودة بدش للاستحمام.

قالها العم ميشيل وانتظر ردا فأومأت برأسي.

-سأرسل لك الطعام مع يسرى أو مادلين، لا بد أنك جائع جدا.

أومأت برأسي أيضا، سحبته "ماتيلدا" ونزلت به إلى الأسفل، كان الدجاج يمشي بخطوات وئيدة أمام الغرفة، كأنه يتفقد الضيف الجديد،

fb/mashro3pdf

ذكر المالطي يمشى في خيلاء وهو يُقأقئ، فردت جسدي على السرير.

لأول مرة أحس أني أفتقد عامود سريري النحاسي، لم يكن فقط مواسيًا لي في لحظات البكاء، شعرتُ أنه يبكي معي، يجاوبني في نشيجي، وكأنه يمد يدا نحاسية ويلفنى بها، وأنا كنت أحتاجه، من لي بديل الآن عن العامود النحاسي.

لماذا كان يضحك "سليم"، وأنا أحمل صرة ملابسي؟!، وما الذي يضحك في هذا؟، ربما كان يحسبه انتصارا على المسيحي الذي هو أنا، وربما قبل المعلم "ميشيل" أن أعمل عنده بعد أن عرف أني "مسيحي"، وربما أقنعته "ماتيلدا" بأني أخوها وأقسمت أني مسيحي، إذن أنا مسيحي رغما عني، أنا لا يهمني أحد، أنا مسلم في داخلي، ولم يجبرني أحد على إسلامي، وأعرف أن ديني عظيم، وأن هناك من يجعل الدين شماعة كبيرة ليعلق عليها حقده وبغضه وكرهه الداخلي للعالم، ما الذي سيقولونه لله عندما يقفون أمامه؟، ما الذي سيقوله "سليم" لله حين يسأله عني، لا أعرف، لكني أعرف تماما أن من لا يخاف الله لا يخاف عبيد الله، و"نورا"، لماذا ثقبت قلبي ومررت نفسها بداخلي قطعة قطعة، وسحبت كل تلك القطع مرة واحدة.

قمت وتوجهت إلى الصنبور المثبت بماسورة تتصاعد من الدور السفلى، فتحت المياه وتوضأت وصليت، دخلت وصنعت كوبًا من الشاي على الأنبوبة الصغيرة ذات العين الوحيدة، ففككت صرتي وعلقت ملابسي على المسامير المغروزة في الجدران، أمسكت بخنجري ذي

fb/mashro3pdf

المقبض المنمنم، تأملته وأخفيته تحت المرتبة بحركة حادة حين سمعت صوت أقدام بالخارج.

انتظرت قليلا حتى سمعت خبطات رقيقة على الباب القديم المتهالك، فتحت الباب لأجد فتاة تحمل صينية صغيرة، كانت قصيرة لكنها جميلة ولها شعر أسود مليء بالخصلات الذهبية، لها بياض شاهي، وقد مياس، وعينان واسعتان كعيني بقرة، كانت حلوة جدا، تقترب من جمال "ماتيلدا"، الصينية كان عليها عدس وجبن قديم وبصلتان ورغيف عيش بأربع قرون يشبه صليبا رخوا.

-والله أنا لن أقدر على الأكل.

-لأجل خاطري، كُل.

مددت يدي بحركة لا إرادية وأنا أتحاشى النظر إليها.

من نظرتي لها عرفت أن لونها بنفسجي فاتح، لون أحلام البنات، لون الرقة والجمال الحقيقي، لون الروح الحلوة، ذلك اللون أوجد بداخلها تلك الفتاة الرومانسية، صاحبة هذا اللون من النوع الذي يحتضن وسادته ويفكر في الفارس صاحب الجواد الأبيض، والذي سينتشلها من الساحرة الشريرة، وسيتصادف أن يكون أميرًا، برداء يشبه فرسان العصور الوسطى، نظرة عين البنت مكسورة ومملوءة بالحنين، ربما هي تعاني وجعًا، ومن الذي سيعاني الوجع غير المحبين، هم الذين خلقوا ليحملوا صليب ألمهم بصبر، وكم هناك من محبين موتى إكلينيكيا، أموات لكنهم يمشون ولا يعيرون العالم انتباههم، سُرِقَت

fb/mashro3pdf

منهم قلوبهم وبقي لهم الألم العظيم.

- شكرا لك يا أخت.

-مادلين يا عبدالله..اسمى مادلين.

-شكرا لك يا أخت مادلين.

تركتني ونزلت..استدارتْ بعد خطوات قليلة والتفتت مرة أخرى.

-ألا تحتاج شيئًا آخر يا عبد الله؟

قالتها برقة شديدة.

-شكرا يا مادلين.

-أنا من قمت بطبخ هذا الأكل وأرجو أن ينال إعجابك.

-شكرا لك.

نزلت، وكدت أفكر فيها لكنني نفضت نفسي بسرعة، كسرت قرنا من قرون الرغيف الأربعة ليشكل الرغيف مثلثا بعد أن كان مربعا، حاولت أن آكل لكنني شعرت بأن كل لقمة أحاول بلعها ترجع مرة أخرى، تركت باقي القرن بجوار الرغيف وتمددت على سريري، أحسست بضعف يعتريني، أنفاسي متلاحقة، وأشياء بيضاء تشبه البعوض تتطاير قدام عيني، ارتحت قليلا حتى هدأ كل شيء، كان قرن الرغيف بعيدا عن الرغيف، فكرت في "سليم" وذقنه الكبيرة وصراخه الدائم، وجماعته الموجودة بمسجدنا والذين يشبهون جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في التلفزيون، أمسكت بقرن الرغيف وأرجعته مرة أخرى

fb/mashro3pdf

إلى الرغيف وفى موضعه ليشكل صليبا مثلما كان، فكرت قليلا ثم أبعدت القرن عن الرغيف ليشكل مثلثًا مرة أخرى، وأرجعته وأبعدته، وفى النهاية أبعدته تماما لتحتل "نورا" رأسي مرة أخرى.

fb/mashro3pdf

١٤

لم أنم طوال الليل، ورأيت ستائر السماء المظلمة وهي تنداح رويدا رويدا من وسط ثقوب الصفائح التي تسقف الغرفة، وكأن الصباح طفل تتعثر ولادته، كانت صينية الأكل فوق الطرابيزة وكلما حاولت أن آكل لا أقدر، انتظرت أشعة الشمس بفارغ صبر، وكأن دهرا مضى قبل أن يتسلل الشعاع إلي من بين الصفائح، لم يأتيني العم "ميشيل" بالأمس كما توقعت، لكني لم أسأل، سمعت صوت الشبشب الذي يخبط في الأرضية الخراسانية الخارجية، لم تمر ثوان حتى سمعت الطرقات العالية هذه المرة.

-صباح الخير يا عبدالله.

-صباح الخير يا عم ميشيل.

-ها .. هل ستنزل إلى الورشة معنا؟

-أنا متعب جدا يا عم ميشيل ولم أتناول طعاما منذ الأمس.

fb/mashro3pdf

-لماذا يا ولدي، كُل الدنيا يحصل فيها هذا الكلام وفى النهاية أنتم إخوة.

عرفت أن ماتيلدا قصت عليه ما جري، حاولت إنهاء الحديث كي لا أتذكر ما حدث .

-أتفهم هذا يا عم ميشيل. فقط امنحنى اليوم راحة. سأذهب إلى المستشفى وأعلق محلولاً.. المحلول يقويني.

-أزمة وتمر يا ولدي. ثوان سأقول ليسري أن يذهب معك.

نزل العم ميشيل وصعد بعده يسري، كان شابا في العشرين أو الثانية والعشرين من عمره لا أكثر، كان فتيًا وجسده ممشوقا ووسيم بعض الشيء، يضع سلسلة حول عنقه يختفى آخرها داخل "التي شيرت" الذي يلبسه، لاريب أن في آخرها صليب.

-هيا يا عبدالله أنا سأذهب معك إلى المستشفى..أبي أوصاني ألا أتركك وحدك.

قمت ولبست الشبشب وغيرت ملابسي بسرعة ونزلت السلم.

-سلامتك يا عبدالله.

كانت مادلين التي تكلمت، لم ألحظ بابهم أثناء صعودي مع العم ميشيل بالأمس، بابهم خشبي جميل وإن كان به شريحة زجاجية كبيرة تغلق وتفتح لترى من بالخارج من غير أن تفتح الباب كله، التفت إليها كانت واقفة على عتبة ضلفة الباب المفتوحة، وابتسامة مشرقة ترسمها

fb/mashro3pdf

على شفتيها، تبينت لون صالة البيت الرمادى الذي يظهر من خلفها، كيف تتوافق مادلين مع هذا اللون؟.

-الله يسلمك يا أخت مادلين.

نزلت مع يسري، كانت المستشفى مغلقة والدكتور لم يستيقظ بعد، انتظرت أنا ويسري على حافة البندورات التي تحيط بالمستشفى وتشتبك بضلعي بوابة الدخول، البندورات مدهونة بالأبيض والأسود، رحت أعد الفواصل بين البندورات وأنظر إلى الانتظام الذي صنعه اللونين، لم يمر وقت كثير حتى فتح العم "عبد الجواد" المستشفى، قطعت ورقة بجنيه دفعه يسري، وهو يحلف بالمسيح أني لن أدفع شيئا، رآني الدكتور وقاس لي الضغط وانزعج قليلا ورجع وأشار إلى غرفة المحلول، تمددت على السرير وغرز "الكانولا" في ساعدي وبدأ جسمي يشفط المحلول، غرز الدكتور عدة حقن بها فيتامينات في المحلول، ساعة قضيتها، وطيفا "نورا" و"سليم" لم يفارقاني مهما حاولت، الدكتور التفت إليَّ

-لا ترهق نفسك بالتفكير يا عبدالله..ستموت بهذا الشكل .

-على الله يا دكتور.

ارتحت قليلا بعد المحلول، قمت على كتف "يسري" مستندا ورجعنا إلى البيت، صعدت إلى السطح وتمددت على سريري، سمعت خبطات على الباب، فتحت وأنا أتوقع مادلين وبالفعل كانت مادلين ولكن معها "ماتيلدا"، ارتحت قليلا لمرأى "ماتيلدا" التي احتضنتني قدام مادلين

fb/mashro3pdf

والأخرى تشيح بوجهها بعيدا ثم نزلتْ مادلين إلى بيتهم.

-أنا أحضرت لك عصائر وزبادي وهي ليست محتاجة للمضغ، اشربها وستبقى عال، وكلمت أنا مادلين لتطبخ لك شوربة دجاج وسيجعلون أعينهم عليك، لا تقلق يا عبدالله، أنت رجل حقيقي، وياما دقت على الرأس طبول يا أخى.

-إن شاء الله خيرا يا "ماتيلدا".

جلست "ماتيلدا" على السرير بجواري وأخذت تحكى لى نكاتًا تُضحك غير المهموم، كانت تحاول إرجاعي كلما بدأ خيالي الغوص في "نورا"، سحبت علبة عصير وفتحتها ودفعت فيها الماصة، وناولتها لي.

-وحياة "ماتيلدا" عندك اشربها.

شربتها وفتحت غيرها وحلفتني مرة أخرى وأخرى، شربت كثيرا حتى ارتحت قليلا وامتلأ جوفي.

-اليوم جاء رجل إلى الكنيسة، سيهدمونها ويعيدون بنائها من جديد، سيبنون حولها سورا كبيرا يحاوطها، وسيضمون إليها مستشفى صغير ومكتبة للقراءة، ستكون حدثا تاريخيا في النجع يا عبدالله.

-على خير إن شاء الله.

ظلت "ماتيلدا" تتكلم وتسحبني من طيفي "نورا" و"سليم" كلما أخذ يطن في رأسي، وجاءت "مادلين" تمسك بالإنجيل ومعها "جوليا" الصغيرة والرقيقة، جلسن يضحكن ويزلن عن العالم غشاوته الكبيرة

fb/mashro3pdf

من قدام عيني، وابتسمت، وضحكت، وزال عني بعض مما كان يعتمل في نفسي.

-خد يا عبدالله هذا الكتاب المقدس.. لكي يحفظك.

مدت "مادلين" يدها وأراحت الإنجيل على الطرابيزة.

-أنا ووصفي سنتجوز الأحد بعد القادم يا عبدالله.

-مبروك يا "ماتيلدا".. واعذريني، تعرفين أني كنت أود تجهيزك بما يناسب أخت، لكنك تعلمين العين بصيرة واليد قصيرة.

- أنا معي ما يكفينى يا عبدالله ويزيد الكثير، ثم إنى سأصبح مسؤولة من رجل، الدور والباقي عليك، نريد أن نبحث لك عن عروس تليق بك مثل مادلين.

نكست "مادلين" رأسها في حياء ونطت الدماء إلى خديها بسرعه ليحمر وجهها كله.

-كيف تكون متعبا وحولك ثلاث بنات من أجمل من أنجبتهم النجوع كلها، هذه جلسة لا يحلم بها شاب في النجع وتقول إني متعب؟

ضحكتُ لمقولة جوليا فضحكت هي الأخرى، ولكي أقطع الشك الذي ينتاب "ماتيلدا" بالنسبه للتلميح للزواج من "مادلين" قلت:

-أنتن من أجمل بنات النجع هذا صحيح لكنك تعلمين أني أنظر إليكن كأخواتي.

fb/mashro3pdf

ضحكن كلهن.

-ونحن لا نطمع في أكثر من أن تكون أخا لنا مثل يسري بالضبط لا تزيد ولا تنقص.

قالتها مادلين.

-ربك الأعلم بالحال يا مادلين.

-هل تعرف في الكمبيوتر؟

-لا يا جوليا، وأنا لا أحب التكنولوجيا من الأساس.

وقمن ثلاثتهن لينزلن ليجهزن الأكل للعم "ميشيل"، غفوت لوقت قصير وحين انتبهت كان يصلني صوت العم ميشيل زاعقا في يسري وبناته، قلت في نفسي ليس لى دخل بهذه الأمور وحاولت النوم.

fb/mashro3pdf

١٥

فى اليوم التالي كنت أفضل حالا، قمت باكرا ولبست هدوم الشغل المليئة بالألوان، ونزلت إلى ورشة العم "ميشيل"، كانت ورشة رحيبة، بها الكثير من الأبواب والشبابيك والدواليب والأسرَّة، تشبه إلى حد كبير ورشة "كرلس" في "النشارية"، أشار لي بدهان بعض الأبواب، قمت إلى "الكمبروسر" وشغلته، سحبت الخرطوم الطويل وفرشت البطانة "المط" الأولى على الأبواب وانتظرت حتى تجف وبدأت في سد الفتحات الكبيرة بالمعجون الأحمر "ستوكو" من الذي يستخدم في محو خدوش العربات، وقمت بسحب المعجون المعمول من مادة اللاكيه المط، والمخلوط بالزنك وقليلا من المياه، وفردت سكينتين لملئ الندوب والحفر ولتحقق التساوي المطلوب.

في اليوم التالي فردت سكينة أخرى للتنعيم، حتى باتت الأبواب كأنها مصقولة، وقت الظهيرة صعدت إلى الأعلى، أكلت وشربت شايا وخرجت لألاعب دجاجات مادلين، الدجاجات ترمح ورائي، أنثر لهم

fb/mashro3pdf

القمح فيتسابقون إليه، أضحك وهم يتقافزون فوق بعضهم، وصلني صوت العم ميشيل وهو يزعق في بناته وابنه يسري، يكلمهم بطريقة جعلتنى أتفاجأ، كيف أخطأت في قراءة العم ميشيل؟، قرأته طيبا جدا، كنت أضع في حسباني أن لونه أزرق فاتح كلون السماء، من المفترض أن يكون نقيا من الداخل، هذا الزعيق لا يناسبه، وصوت بكاء "مادلين" لا يناسبها، لا يمكن "لمادلين" أن تبكي هكذا، أقسى بكاء هو الذي يأتي من الناس التي اعتادت على مداواة الجروح، ثوان وتناهى إلي بكاء "ميشيل" نفسه..خبطت كفا بكف، لماذا يبكي؟، هل أخطأ "يسرى" أو إحدى بناته في حقه؟، هل يمسني هذا الأمر في شيء؟، ربما تكلم أحد من المسيحيين عن وجودي في بيته، لكني نصف مسيحي في نظرهم فلا أعتقد أن يكون هذا سببا، تركت الباب مفتوحا ودلفت إلى غرفتي التي أكرهها، لا أجد ما يماثلني في غرفتي، أكره لون جدرانها الإسمنتي وأكره صفائح السقف التي تتباين بين الأسود والأصفر الكالح كلون تراب المقابر، أحس أنها تمد لي يدا مجانية للتعب، كما أنها تتعاون مع الشمس لملء الحجرة بالحر، لو سمح لي العم ميشيل سأدهن جدرانها، وأضبط سقفها بما أراه يتوافق معي، والحق أنا لا أعرف ما يتوافق معي، ربما لأنه ليس لي حياة تمشي على وتيرة واحدة، التشتت يمنعني من التركيز في لون موحد، هذا يعنى أني حائر، ولا أعرف ماهو لون الحيرة، كثيرا ما فكرت أن اللون الذي يناسبني هو خليط غير محدد من الألوان، مجرد ألوان تتماهى مع بعضها فلا تعرف كيف تستخلص منها لونا واحدًا، بالضبط هذا هو لون الحيرة.

fb/mashro3pdf

سمعت خطوات نعل يجر صاحبه على الأرضية الخرسانية، ثوان وظهر العم "ميشيل"، كان مترنحا، وكأنه سرق حيرتي منى لتظهر عليه واضحة.

-مالك يا عم ميشيل؟..لقد وصلني صوتك؟

جلس بجوارى على السرير ودفن رأسه وسط كفيه قليلا ثم نظر إلى وأكمل:

-والمسيح لا أعرف يا ولدي، أحيانا ينقبض صدري بقوة، لا أعرف لماذا، وأجدني أصرخ ولا أعرف لماذا أصرخ، ولماذا أرتاح لبكاء مادلين أو لتعب جوليا، أرتاح لمشاركتهم تعبي الذي لا أعرفه، وكأن بي شيئا غامضا، شيئا لا أعرفه يظل يضرب عقلى حتى أصرخ، الصراخ يسبب لي هدوئا نسبيا، أصرخ فأرتاح، لا أعرف.

وتهدج صوته وصاحب بدايات البكاء:

-لا أعرف يا ولدي.

-ربما هو شيء بداخلك يا عم ميشيل ربما تكون ظلمت أحدا ما أو عاقبت أحدا بما لا يستحق، أو ربما تعاني لضياع شيء ما، ما كان ينبغي ضياعه.

قلتها وأنا أفكر بنورا، هى التي ضاعت مني وما كان ينبغي ضياعها.

-لا يا ولدي، لا أعرف، لكني متأكد أني لم أندم على شيء فعلته لأنى دائما ما أحكم عقلي، لا لا ..لا أعرف.

fb/mashro3pdf

حيرته تلون وجهه، العم ميشيل مثلي الآن، يعاني وجعي، لكني أعرف سبب وجعي، وكم التعب في هذا العالم يأتيك حين تملك سبب وجعك ولا تقدر على إزالته، كان يكلمني وكأنه يملك خزانا مملوءا حد الطفح بالتعب، وكأن هذا الخزان يمده باستمرار.

سكت العم ميشيل وأخذ يرنو إلى الصفائح التي تشكل سقف الغرفة، كان يتتبع خيوط نور الشمس الساقط من بين ثقوب الصفائح، الغبار يتلاعب داخل أعمدة النور، ينفخ العم ميشيل قليلا فيصنع الغبار مويجات متفجرة داخل عامود النور فقط، ولا أراه في باقي الغرفة، حيرته واضحة وتعبه أوضح، ثوان وسمعت خطوات تجر أصحابها على السطح، خطوات متداخلة تنم عن كثرة أعداد الأرجل، وظهرت مادلين وعينها محمرة، وظهرت جوليا وقد أفل إشراقها بعض الشيء، وجاء يسري مكتئبا حتى أن عنقه تدلدل إلى الأرض كأن فقراته تعاني وجعا مزمنا.

-لا تغضب منا يا والدي..نحن ليس لنا سواك..

-ومن قال أني غاضب منكم؟..أنا غاضب من نفسي، حتى والله الدكتور لم يعرف علاجا لي، وأنا أيضا لا أعرف ما بي والمفترض أن يكون أنا من يعتذر، أنتم الإناء الذي أفرغ فيه وجعي ليس أكثر.

-ونحن متعبون لتعبك يا والدى.

قالتها جوليا وهى تكفكف دمعها، حاولت أن ألطف الجو المشبع بالحزن.

fb/mashro3pdf

-العم ميشيل بخير يا جوليا إنه مثل الحصان وسيبقي دائما مثل الحصان إن شاء الله.

قام العم ميشيل وأمسكوا بذراعه واحتضنوه ونزلوا إلى الأسفل.

***

قمت وبدلت ملابسي، ونزلت إلى الورشة وقت قيلولة العم ميشيل، أغلقت الباب خلفى، أمسكت بالحوامل الحديدية ووضعت عليها الكراتين كي لا تخدشها بعد الدهان، رفعت الأبواب على الحوامل فباتت كجثث ميته تستعد للحياة، ضبطت سيولة اللون بالبنزين، وضعت كمامتي على فمي وأنفي وأمسكت بمسدس الكمبروسر ورحت أرش الدهان على الأبواب، رششت الأبواب كلها طوليا وأعدت الرش عرضيا، انتظرت قليلا، من المعروف أن البنزين يجف بسرعة، قمت وقلبت الأبواب ورششت الجانب الآخر، صبرت قليلا وقلبتها مرة أخرى، وضعت قليلا من اللون الأسود في علبة صغيرة وملأت باقى فراغ العلبة بالبنزين، اختلط البنزين باللون وبقيت الكثافة الأكبر للبنزين، اللون بالكاد يظهر أنه أسود، أمسكت بالقطن وغمسته في العلبة، رحت أضع اللون في أماكن عشوائية كيفما اتفق، ظهرت كأنها انفجارات صغيرة متتالية، أمسكت باللون الذهبى، ورششت قوائم الأبواب ليطغى على الرتوش التي سببها اللون الأسود، صنعت كوبا من الشاى شربته على مهل، كان الدهان قد جف فأمسكت بالورنيش اللامع، وأعدت رش الأبواب بطبقة سميكة لتضفي نوعا من العمق واللمعان، في النهاية يخيل إليك أن اللون عميق

fb/mashro3pdf

إلى حد ما وأن تأثير اللون الأسود يبدو كأنه يترقرق تحت صفحة ماء، أعجبتني الأبواب فتركتها تجف، أغلقت باب الورشة خلفي بإحكام، وضعت قدمي على أول درجات السلم الخراساني، تعمدت أن أخفض صوت خطواتي، كان باب عم ميشيل مفتوحا، خطفت نظرة غير متأنية لم ألمح فيها أحدًا، أيضا لم يصلني صوت أحد. لكني لمحت الغرفة التي بمواجهتى بلونها البني الغامق، هل كان بنيًا فعلًا، رجعت إلى الباب ونظرت وتأكدت أن الغرفة مدهونة باللون البني، هذا اللون يصلح للأبواب وللخطوط الصغيرة كي يضفى رونقا ما، لكن أن تكون الغرفة كلها مدهونة بالبني الغامق فهذا لا يمكن، كيف يتقبل شخص ما أن يعيش وسط كل تلك الكآبة، كيف لأحدهم أن يحتمل تراكم هذا اللون بداخله، وقفت قليلا وتفكرت، ناديت بصوت عال.

-يسرى.. يا يسري.

سمعت تجاوبا من داخل البيت، ثوان وخرج يسرى وهو يجر الشبشب.

-تعال عاوزك يا يسري.

صعد معي يسري إلى السطح، اتكأت على السور القصير، كان ينظر إلى متسائلًا

-ما هو لون غرفة العم ميشيل يا يسري؟

-لونها بنى غامق.

ضربت جبهتي بيدي.

fb/mashro3pdf

-لماذا تسأل يا عبدالله؟

جاوبته بسؤال آخر:

-من الذي طلب دهان غرفة العم ميشيل بالبني؟

-النقاش هو من دهنها وأبي قَبِل حتى لا يتكلف أجرةً مضاعفةً لتغيير اللون.

الآن اتضح كل شيء، العم ميشيل ينام وحيدا في غرفته المدهونه بالبني الغامق وهذا اللون يثير حفيظة العم ميشيل بدون أن يدرك، يكوم داخله الهم، ويجعله يقوم بتصرفات لا يعرفها، جلوس العم ميشيل في غرفته لأوقات كثيرة جعل اللون يدخل في عمقه، تسرب عبر منحنياته، تشربه تماما وبات يماثله في التفاصيل، الآن فهمت.

-هل من الممكن أن تنادي العم ميشيل يا يسري؟

-طبعا.

نزل يسرى مسرعًا، عاد بعد دقائق يتقدم أبوه.

ما اللون الذي يمكن أن يحبه العم ميشيل؟، ما الذي يتوافق معه، حالة العم ميشيل حالة خاصة، ربما هي علاجية، أن يكون اللون القادم مثل ترياق من سُمية اللون البني.

-أيوة يا عبدالله، خير.

-خير إن شاء الله يا عم ميشيل، أنت تنام في الغرفة البنية..

fb/mashro3pdf

صحيح؟

-نعم، هي غرفتى.

-هل تحب اللون البنى الداكن يا عم ميشيل؟

-أنا ليس لي في مسألة الألوان يا عبدالله، هو لون والسلام.

-هل من الممكن أن أرى غرفتك يا عم ميشيل.

أشار إلى الأسفل.

-تفضل يا ولدى، وهل هذا سؤال؟، تفضل، البيت بيتك، وكل ما فيه تحت أمرك، أنت الآن واحد منا يا عبدالله.

تنحيت جانبا لأسمح للعم ميشيل ويسري بالتقدم ونزلت خلفهما، تركتهما يدخلان البيت وانتظرت على الباب، ثوان وجاءنى صوت العم ميشيل .

-أتقف على الباب في بيتك يا عبدالله، تفضل يا ولدي.

دخلت، لون الصالة رمادي، توجهت مباشرة إلى غرفة العم ميشيل، هالني ما رأيت، الغرفة مكتومة تماما كأن شبح اللون يمد أذرعته ويحتوي القاعد، كان هناك بعدًا آخر للون لا يدركه العم ميشيل، نظرت في الجدران، وأنا مشفق على ساكنها، يا إلهي، كان اللون ينظر إليَّ من الجدران، يحاول أن يخترقني ويتمدد عبر روحي، ملست على الجدران براحة يدي، كانت متحرشفة تماما كجلد ثعبان، المعجون تساقط ولم يصنفر جيدا، والنقاش احتاج إلى مضاعفة كمية اللون لكى يستر

fb/mashro3pdf

العيوب، اللون يضيق الغرفة على اتساعها، السقف كان مزخرفا بالألوان، الحقيقة أن الزخرفة كانت جميلة جدا، لكن اللوحة العامة للغرفة مع البني كانت تشكل لوحة مأساوية، لم تكن هناك مساحات بيضاء، وهذا ما جعل اللون البني يستأسد، ألوان الغرفة كلها كانت جميلة كألوان وحيدة، من الممكن أن تمتزج بالأبيض والألوان الأخرى لتظهر، لكن وجود الجمال كله في لوحة واحدة يحيلها إلى القبح.

-لا بد من تغيير هذه الألوان يا عم ميشيل.

-لماذا يا ولدي، ألا تعجبك؟

كان من الواضح أن اللون قد احتوى العم ميشيل في داخله، يدافع عنه حتى أنه يستنكر رفضي له، العم كان واقعا تحت سيطرة اللون الضارب في كل مكان.

-الألوان غير مضبوطة يا عم ميشيل، من فضلك، أنا أريد تغيير ألوان حجرتك.

انتبهت إلى أنه قد لا يوافق للتكلفة التي سيدفعها والتي جعلته يقبل اللون البني مرغما.

-لا تقلق من الأجر، أنا لن آخذ منك أجرا، ستدفع فقط ثمن الدهان.

نظر إليَّ وضحك، لا أعرف كيف يضحك وسط ذلك الجو المشبع بالحزن، الجدران كلها تكاد تنزف من عصر اللون البنى لها.

fb/mashro3pdf

-أنا موافق يا عبدالله.

-هيا بنا إلى الورشة.

فتحت باب الورشة وأغلقته وراءنا بسرعة كي لا يتناثر الغبار على الأبواب اللينة، رفع العم ميشيل حاجبيه بدهشة فرحة، تملى بنظره في الأبواب التي دهنتها وصفق بيده في جذل كطفل.

-ما شاء الله عليك يا عبدالله عملك يتيح لك أن تكون ضلعا في الورشة.

الحقيقة أن العمل أنساني "نورا" و"سليم" و"ماتيلدا"، وكان ينبغي عليَّ الانتباه إليه وألا أترك نفسي للفراغ يحاوطني ويستفرد بي مما يجعلني أفكر، قلبت الأبواب على الحوامل لكي أرش الجانب الآخر بالورنيش فقط، وقلت ليسري أن يطفئ الأغاني التي يسمعها لأنني لا أحبها مؤقتا كي لا تثير شجوني، سمع كلامي مرحبا وكان يصنع لي الشاي كلما صنع لنفسه.

في اليوم التالي تعاون معي يسري في صنفرة جدران غرفة أبيه، لم أفكر كثيرا في اللون، كل ما أهمني هو أن يكون اللون خفيفا، كي يضفي اتساعا معقولا على الغرفة، وأن يكون مريح النظر بالنسبة للعم، كان يُسري ينتهز فرصة غياب أبيه ليشرب السجائر. ألح عليَّ أن أدخن واحدة وشربتها، علمني كيف أسحب الدخان على صدري، في البداية سعلت بقوة لكني استسغت الطعم بعد ذلك، وكم كان الأمر رائعا، كان الدخان يدخلني ليرتق فتق جراح نورا وسليم، كأن به بلسم خفي يمدني

fb/mashro3pdf

بالقوة، وكانت السجائر أفضل شيء تعلمته.

فى اليوم التالي انتهيت من صنفرة الجدران أنا ويسري، سحبت سكينة معجون واحدة عدلت بها الشقوق الخفيفة والحراشيف الزائدة، انتظرت قليلا حتى جف المعجون، دهنت السقف بالبلاستيك الأبيض، كي أمنح الحجرة قابلية للون الجدران، وجود يسري ودخول مادلين بالشاي من وقت لآخر كانوا يسحبونني من تفكيري، كلما جاءنى طيف نورا أو سليم، قعدت على صفيحة البلاستيك، دخنت سيجارة ورحت أفكر في لون الجدران، قلت ليسري أن يمر على الجدران مرة أخرى بالصنفرة، بينما أنا أفكر من غير أن يقلقني صوت خروشة الصنفرة، اللون في الصالة رمادي، وهو لون كئيب أيضا، فكرت في لون يتداخل مع لونها، يتماهى معه بحيث لا يؤثر الانتقال من اللون للون آخر على المنتقل، قلت لمادلين أني أحتاج لزهرة غسيل زرقاء، وبالفعل أضفت الزهرة بكثافة على البلاستيك ليصبح اللون أزرق خفيف بلون السماء، الغيم رمادى والسماء زرقاء، السماء راحة للناظر ومهدئ قوي للإنفعالات، والبحر أزرق، والنقاء الأبيض به قليل من الأزرق، وبالفعل دهنت الحجرة باللون السماوي.

حين دخل العم ميشيل فرح جدا باللون، وكنت أعرف أن اللون سيفرحه، وشكرتني مادلين وجوليا على اهتمامي به، ولما جاءت "ماتيلدا" قصوا عليها ما كان، فرحت جدا غير أنها تضايقت من مسألة شربي للسجائر، لم تكن تعرف أني أنفخ فيها تعبي وفكري وقلقي وصراعي الداخلي، كأني كنت أعاقبها على ذنب ليس لها يد فيه، ومن منا يعاقب المسؤول

fb/mashro3pdf

عن أفعاله، كلنا نترك الفاعل بفعلته ونعاقب الآخرين، شددت أنفاس سيجارتي لتروى الصدر المحتاج للدخان، كنت أنمخ وكأنني أشفط حياة "نورا" و"سليم"، وكأني أقتل العم "عبده" اللحام، و"وصفي" و"شنودة"، كانت "ماتيلدا" كلما جاءت وجدتني أدخن السجائر وأعمل في الورشة، وجاء يوم الأحد، لا تفتح الورشة في هذا اليوم، توجهت للعم ميشيل.

-سأعمل وحدي في الورشة يا عم ميشيل.

-ألن تذهب إلى الكنيسة معنا يا ولدي؟

دهشت لسؤاله، ما الذي قالته "ماتيلدا" للعم "ميشيل"؟، أتراها قالت له أني مسيحي أم ماذا؟، ألهذا جاءتني "مادلين" بالإنجيل؟، ألهذا تكلمت "ماتيلدا" عن مسألة الزواج من مادلين؟، العم "ميشيل" وقف ممسكا بكتفي.

-لا تبتعد عن الكنيسة فتبتعد عنك يا ولدي، وأنت رجل صالح ونحن نحبك، رح وتملى من النظر في عين يسوع المسيح، وبص على الملائكة التي تحاوطه، وترنم، واعترف هناك للقس "إيليا"، كلنا نخطئ يا ولدي وكلنا مذنبون ونحن نعترف لتزول عنا الخطايا ونرجع بالبدن الجديد، خذ صك غفرانك، هذا سيطمئنك ويجعلك عبدا طيعًا ومباركًا، لا تكن مثل يُسري مسيحي بالاسم، كن مسيحيا بالفعل يا ولدي.

-لا سأظل أنا مع يسري يا عم ميشيل

fb/mashro3pdf

تأسف قليلا .

- على راحتك يا ولدي.

جاءني "يسري" بعد أن غادر العم "ميشيل" بصحبة "مادلين" و"جوليا"

-تعال سنفتح الورشة ونجلس هناك أفضل.

نزلت مع "يسرى" وفتح الباب وأغلقه وراءنا، جرى إلى الداخل ورحت إلى البوتاجاز وأنزلت الكوز الصفيح المليء بالغراء وأشعلت العين ووضعت الكنكة عليه، جاءني "يسري" وهو يلوح بمجلة، كانت مجلة "سكس" وبها البنات في أوضاع مخزية مع الشباب.

-هؤلاء سيباركهم المسيح يا عبدالله، هم يضحون بأنفسهم من أجلنا نحن، الشعوب الغلابة.

واقتطع ورقة لأنثى مثيرة، في وضعية أكثر إثارة.

-ثوان يا عبدالله

وسمعت تأوهات يسرى تتصاعد من الحمام وصوت عجيب يتصاعد بايقاع سريع، تحول إلى صرخات قصيرة متقطعة.

-أخفض صوتك يا وقح.

قلتها ضاحكا وأنا أقلب صفحات المجلة ممسكا بكوب الشاي، جاءني صوت خرير الماء الذي تصاعد من الحمام، دقائق وخرج "يسري" ،

fb/mashro3pdf

وهو ينظر إليَّ بزوغان عين واضح.

-هـذه هـي أمريكا التي يكرهونها يا عـم، تمنحنا البنات وتصرف عنا بعض ما نلاقيه من وجع بسبب هذه الترسبات التي تتكوم بالظهر، أمريكا تمدنا بالفرح يا عبدالله، أتعرف، لو أنني أمريكيا لنمت مع كل هؤلاء البنات. والمسيح لن أدع واحدة تفلت من يدي.

أمسك "يسري" المجلة وخبأها بأحد الأركان في الورشة، جاء ليجلس بجواري وهو منتعش ويشم الهواء بعمق.

-أأنت مسيحي أم مسلم يا عبدالله.

-أنـا مسلم يا يسري، لكن التي ربتني مسيحية، وأختي "ماتيلدا" مسيحية، وأخي الذي أخذ حبيبتى مسلم، وأبي الذي جعلنى أكره العالم كله مسلم، ومن سيتزوج أختي هو مسيحي متعصب ومعه أحد أصدقاؤه أكثر تعصبًا، الدين ليس له دخل بما نعانيه، لكنها الناس وصدورها التي يجب أن تتطهر من الفكر العقيم.

نظرت في عينيه وتابعت

-لماذا يعرض أبيك عليّ أن أذهب إلى الكنيسة في حين أنك تسألني أمسلم أنا أم مسيحي؟

-أبي يعرف أن نصفك مسيحي ونصفك مسلم، ليس لك ملة محددة، وأبي كان سيترهبن في الكنيسة، لكنه رجع في قراره، لو كان ترهبن لكنت مت أنا ومادلين وجوليا في ظهره، أو ربما كان مصيرنا

fb/mashro3pdf

في إحدى دورات المياه .

ضحكت وضحك يسري وأكمل:

-هو يريدك أن تتنصرن وتبقى مسيحي بالكامل، على الأقل يعرف كيف يتعامل معك.

-لا يا يسرى أنا مسلم وسأظل مسلما، وأنا لست متذبذبا، أنا مسلم بالكامل، هذا لا يعنى أنني أنكر فضل أمي "مارية" وفضل أختى "ماتيلدا"، لكنني مسلم ومقتنع تماما بإسلامى.

-هذه قناعتك يا عبدالله، وهى ملك لك مع أنني كنت أود أن أخبرك عن المسيحية، هي دين..

-من فضلك يا يسري، احتفظ بكلامك لنفسك، أنا وأنت إخوة، لكن لكل منا طريقه، وأنا لم أسألك لماذا لم تذهب إلى الكنيسة في يوم القداس، وليس لي مكسب أو خسارة في هذا الأمر، هو أمر خاص بك، فَلِمَ أشرك نفسي فيما ليس لي؟، سأذهب إلى غرفتي وأنام قليلاً، الظهر على وشك الآذان.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

١٦

سمعت خبطات على باب حجرتى مع صوت الدجاج الذي يتعارك بالخارج، فتحت لأجد ناجح، فرحت جدا وحضننى لوقت وهو يقبلنى في خدي أربع قبلات من الإتجاهين.

-كيف حالك يا عبدالله، والله لقد أوحشتني، ولا تعرف كم تعبت لكي أعرف أين تقيم الآن لولا "ماتيلدا" بارك الله فيها، كيف حالك وماهى آخر أخبارك؟

-بخير يا ناجح، والله فيك الخير، كيف حالهم كلهم في شق النصاري؟، وكيف حال س ...

-سليم بنى بيته بالخرسانة ودوره بالطوب الاحمر، بيته سيصبح بيتا جميلا يا عبدالله حتى أخوك لم يعرف مكانك، لكنه دلني على "ماتيلدا" وقال هي تعرف مكانك.

-سليم قال لك اسأل أخته "ماتيلدا"؟

-نعم، وعرفت أنه أيضا عقد قرانه على خطيبتك القديمة.

fb/mashro3pdf

وسيكون الزواج خلال شهرين..

سرحت قليلا فقام ناجح وأشعل الأنبوبة ومد الكنكة متسائلا، قمت إلى صنبور المياه في الحائط الصغير وفتحته لأملأ الكنكة وأعدتها إليه ليضعها على الأنبوبة، أخرجت علبة سجائري وناولته سيجارة فأشعلها

-هل تشرب السجائر الآن؟، وكنت تقول لى حرام وخلافه.

-كل وقت وله أدان يا ناجح

- والله لولا معزتك ما كنت قدمت إلى هنا، أنت تعرف الأحوال الآن بين المسيحيين والمسلمين، وأنت تسكن بيتا مسيحيا، ولا أستبعد أن يقتلوننا.

-ولماذا يقتلوننا يا ناجح؟

-ماذا بك يا عبدالله ألا تعرف شيئا؟

-أعرف ماذا يا ناجح..؟

-الذي حدث في الكشح بسوهاج، أكثر من عشرين واحدا ماتوا يا عبدالله والدنيا مقلوبة والمشاكل تسرح من بلد إلى بلد، ومن نجع إلى نجع، وأخوك سليم وأصحابه من أصحاب الذقون اشتبكوا مع وصفي وشنوده وغيرهم أكثر من مرة، أتريد معرفة الأسخم من هذا؟.

-خيرا يا ناجح.

-عادل الخواجه وعمك راجح سحبوا السكاكين على بعضهم، كل الدنيا من الممكن أن تتعارك إلا عادل الخواجة وعمك راجح، هذه

fb/mashro3pdf

كانت صعبة على الناس.

وقفت مذهولا.

-العم راجح وعادل الخواجة، هؤلاء أكثر من إخوة!، ماذا حدث في هذا العالم، كيف يحدث هذا، يا إلهي، يكاد عقلي يطير من رأسي.

وخبطت كفا بكف بقوة.

-أتعرف يا ناجح، هذا التلفزيون هو السبب، منذ زمن غير بعيد كان المسيحيون والمسلمون يبنون بيوتهم مع بعضهم وكلهم يدًا واحدة ضد الغريب، كانوا يأكلون مع بعضهم ويشربون مع بعضهم، الآن يشاهدون معركة بين مسيحيين ومسلمين في أمريكا فيدافع الذي بنجعنا عن أناس لا يعرفهم، يشاهدون المسلسلات الطائفية ويؤكدون أنها مبنية على أساس هو حقيقى، كيف يعقل هذا؟، هذه العقلية التي تصدق هذا الكلام وتبني الأسس عليه لا يمكن لها أن تفكر تفكيرا سويا، منذ زمن كان النجع في راحة تامة بغير هذه التكنولوجيا، وأعتقد أنها سبب البلاء علينا، ما كان لنا أن ننفتح على الآخر ونرى مشاكل العالم، يجب على كل واحد في النجع أن يفكر كثيرا قبل أن يخطو باتجاه ما، وابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإن انتهت فأنت حكيم.

-هل سمعت بالتليفون المحمول يا عبد الله، الشريحة الآن بثلاثة آلاف جنيه والعدة "السونى اريكسون" بثلاثة آلاف أيضا، ومن الممكن أن تكلم به أي شخص سواء معه تليفون محمول أو خط أرضي، صحيح

fb/mashro3pdf

أن الشبكة ليست قوية بما ينبغى لكنه اختراع سيقلب وجه العالم.

-بص يا ناجح، كل شيء في الدنيا مثل الإنسان بالضبط فيه وجه الخير وفيه وجه الشر، الكمبيوتر يعرض الدين والسكس، القنوات تعرض قناة اقرأ ومن الممكن أن تحول الطبق لترى إيروس تى في والإكس إكس إل، الكاسيت يشغل فتاوى واحكام وخطب دينية ويشغل أيضا سهير زكى ونجوى فؤاد، المحمول هذا سيجعلك تنظم عملك وتعرف مكان صاحبك، وتسأل شيخ عن فتوى، وتكلم عاهرة لتضرب معها موعدا يخالف موعد دورتها الشهرية، كيف يكون استخدامك للتكنولوجيا؟، هذا هو الفرق.

نظر في وجهي مليا، قمت وفتشت جيب الجلباب، وأخرجت سبعين جنيها وناولته إياها.

-خذ، هذا هو باقي حسابك معي.

- والله العظيم لن آخذ شيئا، صدقني أنت تحتاجهم أكثر مني، ثم إني إلى الآن أعمل بعدتك التي لم تأخذها من شقة الحاج، أنا مدين لك يا عبدالله، أنت علمتني وجعلت مني مطلبا متاحا للنجع في النقاشة، أنا أشكرك كثيرا وأقدر لك فعلك الجميل معي ولن أنساه لك ما حييت، وقريبا سأرسل إليك لتعمل معى لكني أنا سأكون مساعدك كما كنت، العين لا تعلو على الحاجب يا عبدالله.

-تسلم يا ناجح ..إن شاء الله، ربك يسهل الأمور.

وضعت النقود في المحفظة وقام ناجح ليستأذن ونزل إلى الشارع.

fb/mashro3pdf

١٧

جاءني صوت تلك الجلبة بالخارج وأصوات خفقان أجنحة الدجاج وقأقأة ذكر المالطي، كان صوت "مادلين" وهي تنادي عليهم وتضع لهم الأكل، نظرت من ثقب الباب كانت جالسة ومعها مقص تقطع به الخس والجرجير وتضعهم لذكر المالطي مع بيضة مسلوقة مفتتة، تلبس جلبابا أحمر خفيف زادها رونقًا، كانت تنظر ناحية بابي كأنها تعلم أني أراقبها، تعود وتنظر إلى ما تفعل، قامت إلى الماء وملأت "الطاجن" للدجاج ورمت بعض الحبوب على السطح، جاءت ناحيتي، تمددت بغير صوت كأني نائم، جاءتنى طرقات يدها على الباب، فتحت لها، نظرت في وجهي.

-حجرة أبي أصبحت رائعة، وهدأ الآن ولا يصرخ فينا مثلما كان، نحن لا نعرف كيف نشكرك يا عبدالله.

-لا شكر على واجب يا مادلين.

-أنت مسلم..صحيح؟

fb/mashro3pdf

-طبعا، وهل سألتيني من قبل وأنا أنكرت هذا؟

-لا طبعا، ولكنك لم تأت معنا إلى القداس، في المرة الأولى قلت ربما متعب وبعد الثانية والثالثة عرفت أنك مسلم، كيف تكون مسيحيا ولا تعترف بخطيئتك وتنال صك غفرانك، أبي كان يعتقد أنك فعلا نصف مسلم نصف مسيحي، وكان يود لو تكون مسيحيا كاملا.

-لا، أنا مسلم وأُصَلِّي، ومسلم كامل ومقتنع حتى النخاع، ولو أن هذا سيسبب لكم قلقا فمن الممكن أن أمشي.

وضعت أناملها على فمها وهي تشير بيدها الأخرى.

- لا لا من قال هذا الكلام، تمشي كيف. لقد تعودنا عليك، وأنت لا تعرف قيمتك عندنا، أنت غال جدا يا عبدالله، وكلنا نحبك، "ماتيلدا" دفعت لأبي إيجار شهرك هنا، وأوصتني عليك، وقصت على سمعي ما يشيب له الوليد، أنت جمل صبر يا عبدالله، وكم كبرت في نظري، وأنا لا أمنح الإنجيل إلا لمن أحبهم يا عبدالله، حتى الأكل أقسمت "ماتيلدا" على أن تدفع فيه غير أن أبي رفض بعد ما رأى منك تجاهنا..أرأيت كرم المسيحيين..

-"ماتيلدا" أختي حقيقى يا مادلين، وأنا كنت أعاملها بالمثل حين كنت أعمل بعيدًا من هنا، وستمر أيامًا قليلة وسأقبض من أبيك لأعطيها حقها.

ابتسمت مادلين، ذكرتنى بـ "ماتيلدا" التي تزوجت، هي التي تدفع لي أجري من عمل وأكل ورعاية، كم أوحشتني، وكم أريد رؤيتها،

fb/mashro3pdf

سامحيني يا أخت، لم أقدر على حضور إكليلها، أنا أعرف "وصفي" وكرهه للمسلمين، وما كنت أريد أن أسبب لها المشاكل، وأنا لن أقدر على زيارتها وهي تعرف ذلك، دلفت "مادلين" إلى حجرتي وهي تنظر إلى وجهي.

-تسمح لي أن أصنع لك كوبا من الشاي؟

-اصنعيه في بيتك بالأسفل ..هذا أفضل..

أشارت برأسها نفيا وقالت:

-سأصنعه هنا.

-على راحتك ..تفضلي.

- ثم ما هو صك الغفران الذي ذكرتيه أنتِ وأبيكِ؟

-كان قديمًا صك تمنحه الكنيسة، ونحن نستخدمها ككلمة ليس إلا.

كنت أعرف تمامًا أنها تريدني مسيحيا للزواج منها فقط وليس حبا في الله، أو أن المسيحية هي الدين الفعلي، حتى أبيها كان يريدني نصرانيا لكي لا يقلق بشأن وجودي في بيته وإن كانت مسألة نصف نصراني قد قللت من الشك في وجودي، كنت أعرف أنه قال إني مسيحي ليضمن وجودي بسلام في بيته من غير قلق، وربما مسألة ذهابي للقداس كانت لتأكيد المسيحية في أذهان الناس، "مادلين" تميل إلى كل يوم، وكل يوم يتزايد في داخلي ذلك الإحساس بالقلق، أكثر من مرة فكرت في

fb/mashro3pdf

لملمة حاجياتي في صرتي، وأرجع أفك الصرة مرة أخري، إلى أين ولا مكان يقبلني، إلى أين وكل الأبواب موصدة في وجهي، إلى أين ولم يعد لي أحد في هذا العالم؟.

ووضعت كوب الشاي بجواري وجلستْ قدامي تنظر إلى وجهي، الحقيقة لن أكابر، منذ فترة كنت أحس أنها تتسلل إلى داخلي وأنا كنت محتاجًا لأى أحد أنفض به سيرة "نورا" وشكلها، كنت محتاجا لبديل حى، أراه في كل وقت ليشغلني عن التفكير، لكن كانت هناك عقبات، كلام العم "ميشيل" عن الكنيسة وزيارتها، ربما كنت أزيد النار وقودا لتشتعل أكثر بين المسيحيين والمسلمين، ماذا لو سمع أحدهم بأني سأتزوج مادلين؟، خاصة لو كان يحبها، وربما سيطلب مني العم ميشيل تغيير ديني، آخذا في اعتباره أن كل المسلمين يعلمون أنني نصف مسيحي أو مسيحي بالكامل بعد التعميد، ذلك هو المتراس المتين الذي يفصلني عن بنته، ثم أن أحب "مادلين" في عرفي خيانة، لذلك قررت كتمان ما بداخلي وسأقوم بوأده إذا تحقق لي أنه بداية حب، أعرف أنه من الممكن أن أتزوجها وأقيم عندهم في البيت، سأبقى زوجها وأبا عيالها، ومن الممكن أن أظهر لهم أني مسيحيا وأنا أحمل الإسلام بداخلي، يا إلهي، أنا غير معترف به كطفل الخطيئة، كابن غير شرعي نتيجة علاقة عابرة لم تكلل بزواج، كابن تطلقت أمه من أبيه ولا يعرف إلى أي الاتجاهين يمضي، إلى الأم التي لن تقدر على رعايته، أم إلى الأب الذي سيجعله خادما عند زوجته الجديدة، عالمين مختلفين وكلاهما يكن حقدا لأخيه، برغم الصفاء والسلام

fb/mashro3pdf

المفروشين على وجهيهما بغلالة رقيقة تتكشف عند أولى المطبات، ومنذ متى يكن المسلمون للمسيحيين محبة في هذا العالم التكنولوجى الجديد؟، ومنذ متى يكن المسيحيون للمسلمين محبة؟، كلام يتشدق به من يجلسون قدام الميكروفونات كالشيخ والقس وفي الأخير يصلي هذا في المسجد ويصلي هذا في الكنيسة، ويشوشان على بعضهما، ولا تكتمل صلاة أحدهما، كلاهما سيظل أبدا يخطط لقتل أخيه، وحين يظهر على تلك الشاشات المقيتة سيتبدل الكلام ليحل عليها سلاما زائفا يضعونه بجوار الميكروفونات في حالة المغادرة.

-مالك؟.

شدتني مادلين من تفكيري.

-لا يوجد شيء.

وجدت أنها اقتربت أكثر من اللازم لتطبع على وجنتى قبلة، ملمس شفتيها وحده كان يسري من وجنتي إلى أعصابي كتيار كهربى لذيذ، ارتعشت كليةً، حين وجدت صمتي حسبته قبولا، مسحت الطريق بشفتيها من وجنتي إلى شفتي، أمسَكت بالسفلى، دارت بلسانها لتضع بعضا من ريقها عليها، حاولت أن أبتعد، لم أقدر وأنا أتحسس بلساني عسلا شهيا، هل انحنى صدرها وانزلق ليتكور في يدي؟، أم أن يدي هي التي ارتفعت لتقبضه في عليائه؟، كان رخوا كعجين أمي ماريه، ابتعدتْ بشفتيها عن شفتي، كمسحور كدت أن ألاحقها، ابتعدت وهى تبتسم بعد أن منحتني نارا تشتعل في أنحائي، تاهت مني حروف الكلام،

fb/mashro3pdf

كان ينبغي عليَّ أن أقول جملة ما تناسب الحدث، لكني وجدت حرف الهاء يدخل في الفاء، والسين يجري وراء العين، وما الذي جعل الظاء يدخل في ركب الجملة، قلبي يدق بعنف وأنفاسي تتلاحق، وقفتْ تنهث وتعدل من جلبابها، قامت وراحت إلى الباب ورجعت إليَّ بنظرة دخلت في عمقي كمسمار حاد، كان النور ينفذ من خلال جلبابها الخفيف، لمحت وركيها ظاهرين، خرجت وأغلقت الباب خلفها ونَزِلَت، كان من الممكن أن يتطور ما بيني وبين "مادلين" وسأخسر ما بقي لي من العالم، وسأظهر قدام نجع الرشايدة وشق النصاري وتجمع النشارية كذئب بشري عفن، استحل وجوده في بيت آمن له، ليخطط للفتك بابنة صاحب البيت، قمت ولملمت حاجياتي بسرعة وشبكت صرة ملابسي، وضعت خنجري بداخلها وجلست بجوارها، إلى أين أمضي وأي مكان يقبلني، أإلى أخي بعالمه المتعصب، أم إلى من؟، حاولت أن أبكى ونجحت قليلا، وإن كان بكائي ناقصا لافتقادي العامود النحاسى، ياربى إني متعب وتعلم أني متعب، وأنتقل من تعب إلى تعب إلى تعب، إلى أين المسير وكل الجهات ترفضني، ولا يصح أن أقيم ببيت سأخطئ فيه حتما، أنا لست بيوسف وليس لي قميص يُقَدُّ من الخلف، وأعرف أني في المرة القادمة لن أرفض هيت لك، أنا بشر وهيت لك هي ما أرجوه، يا إلهى، أكل هذه ابتلاءات؟!

فتح بابي فجأة ليطل وجهها، يا هذه الروح الحلوة يا "ماتيلدا"، يا منقذتي وأميرتي، قفزت قفزا إلى حضنها فشدتني برفق إلى خارج حضنها، تبينت "وصفي" الذي استدار وارتكن على السطح ينظر إلى

fb/mashro3pdf

الشارع.

-مالك يا عبدالله ولماذا تربط صرة ملابسك بهذا الشكل ؟

-سأمشي من هنا يا "ماتيلدا"، لكني لا أعرف إلى أين سأذهب.

-لماذا، هل ضايقك أحد؟، هل أخطأ أحد في حقك؟

-لا ..لكني لا أريد أن أظل هنا.

-طيب ستذهب إلى بيتنا القديم، بيت أمك "مارية"، أنا تزوجت والبيت غير مسكون.

-وأظل بجوار سليم ونورا، لا لا يمكن، ثم كيف أذهب إلى بيتك وإن تعاركتي مع وصفي مثلا إلى أين تذهبين؟ لا لا يمكن أبدا.

-صدقنى يا عبدالله، وصفي تغير جدا، لا يشرب الحشيش، وهو رجل حقيقي يخاف على من الهواء، ولا يرفض لى طلبا، من فضلك يا عبدالله، لا تجعلني أقلق عليك، تعال معى يا أخي، وحسابك مع المعلم ميشيل سأكلمه أنا فيه، هيا بنا.

لم أكن أملك الرفض، تماما ككل شيء في حياتي لم أُخيَّر بينه وبين ضده، أنا مجبر على طول الخط، حياتي تسير أمامي كمسار إجباري لا ينبغي عليَّ الحياد عنه، سأرجع جارًا لـ"نورا"، وستكويني الذكريات، سأموت كلما سمعت ضحكتها مع "سليم"، وسأموت كلما رأيت "سليم" نفسه، كل الناس تعيش لمستقبل ما، لكني الوحيد في العالم الذي ليس

fb/mashro3pdf

له غد واضح، أمسكت صرتي ومشيت قدام "ماتيلدا"، نزلت درجات السلمَ فَفُتِح باب بيت العم "ميشيل" وراحت "مادلين" تنظر إليَّ وفي عينيها دمعة ترقرقت وأبت النزول.

-إلى أين يا عبدالله؟

-سأذهب إلى بيت أمي "مارية".

-سلام عليكم.

لم تتكلم وأغلقت بابهم ورأيت ظهرها استند على القطعة الزجاجية، نزلت ومن خلفي "ماتيلدا" و"وصفي"، ركبنا العربة "الكبود" حتى شق النصارى، نزلت عند الميدان وتقدمت بخطى متثاسلة ناحية بيتي القديم، كان بيتنا قد تشكل وبنى نصفه الذي يملكه "سليم" بالطوب الأحمر، ونصفي أنا تهدم أو كاد، وارتفعت الأعمدة الخرسانية فوق السطح تمهيدا لقيام دور آخر فيما بعد، جاءتني ضحكات "سليم" من داخل البيت ورأيته في الشباك وهو منهمك في الكلام بشيء ما على أذنه، أكيد هو التليفون المحمول الذي أخبرني عنه "ناجح"، كان "سليم" يضحك وهو يتكلم ويروح ويجيء، ورأيت باب بيت "ماتيلدا" التي تقدمت وأدارت المفتاح في الكالون وفتحت الباب، وكأن أمي "مارية" لاتزال موجودة، رائحة المكان مشبعة بها، أعطتني "ماتيلدا" المفاتيح وأغلقت حجرة أمها بالمفتاح.

-هذه الحجرة أنت لست في حاجة لها.

وقفت قدام الصور التي تمثل المسيح وأمه مريم وصور أخرى.

fb/mashro3pdf

-وحياة "ماتيلدا" عندك لا تنزع الصور من أماكنها، لا أريد أن يتغير بيت أمنا "مارية".

- حاضر يا "ماتيلدا".

سلمت عليَّ ورأيتها تدخل المطبخ وتخرج، نظرت في عيني قليلا.

-هذا بيت أمك يا عبدالله، أنت لست ضيفا هنا تصرف كأنك في بيتك، وهو بيتك بالفعل، واستخدم كل شيء تجده بالبيت، كل شيء تحت أمرك، أنت صاحب هذا البيت يا عبدالله.

شكرتها فسلمت عليَّ مرة أخرى وخرجت لزوجها، سندت صرتي ودخلت إلى حجرة الضيوف، وجدت التلفزيون وقد علاه بعض الغبار، أمسكت بالمقشة ونظفت البيت وحين دخلت المطبخ وجدت لفافة فوق البوتاجاز، فتحتها لأجد "ماتيلدا" تركت لي نقودا كثيرة، ركنتها وأكملت تنظيف البيت، رفعت الصور ونظفتها ومسحتها بورق الجرائد فلمع المسيح ولمعت الأم المقدسة ولمع الشهيد "مارجرجس" وهو يضرب التنين المجنح، فتحت التلفزيون ورأيت نشرة الاخبار والمذيع يردد:

" هذا وقد تغير اسم المدينة من مدينة الكشح إلى دار السلام.. وهو الاسم الذي كان مسجلا لمدينة الكشح قديمًا مع اسم آخر هو أولاد طوق، وتم بحمد الله إخماد الفتنة الطائفية التي اشتعلت وانتهت بمقتل أكثر من عشرين شخصًا من الجانبين، وعادت إلى المدينة تلك الروح المصرية المليئة بالسلام"

fb/mashro3pdf

-ها ها ها، أنت ابن كلب في الأساس، سلام، أي سلام هذا؟، سلام زائف، سلام يصلح لنشرات الأخبار ولنقل الواقع المزيف للناس، مع كل مسلسل يناقش الفتنة الطائفية سيقع قتيل هنا أو هناك، مع كل إعلام عار وأهيف، ولا يعرف كيفية المعالجة الحقيقية، ودون مشاركة صافية وخالصة لن يكون هناك سلام، بالضبط كما هو الحال في أفلام البلطجة والسيوف والمسدسات والمطاوي والسنج.

أغلقت التلفزيون، أمسكت الخنجر المملوكي القديم، سلتُّه من جرابه ونظرت إليه، كان جميلا ومنقوشا بطريقة بديعة، وضعته داخل سروالي في الجانب الخارجي من الفخذ، ووضعت مقبضه خارج السروال وشددت تكة السروال لكيلا ينزلق، وخرجت من الباب.

fb/mashro3pdf

١٧

- هه ما رأيك يا عم بستاني؟

قلب في الخنجر يمينا ويسارا وهو يتأمل النقوش في مقبضه وحرفه المسنون.

-هذا الخنجر سأدفع فيه ألفي جنيه.

-يفتح الله يا عم بستاني.

كدت أمشي لكنه استوقفني:

لحظة يا عم عبدالله، ما فائدته لك؟، ولو سمعت به الحكومة فستأخذه منك بلا مقابل وسيبيعه الضابط لحسابه الشخصي، وأنت لن تحصل حتى مليم أحمر.

-يأخذه الضابط رغما عني ولا أخسره برضاي التام يا عم بستاني.

في الحقيقة أي مبلغ كان سيقول عليه كنت سأرفض لأني أعرف جشع

fb/mashro3pdf

"بستاني" الذي يعمل بالآثار، هو الوحيد الذي سيقدر قيمة خنجري، كان "بستاني" يسكن قريبا من الكنيسة شرق البلد، ويقول دائما أن بلدنا مليئة بالآثار ويا سعده يا هناه من تفتح له أبواب المقابر، وكان يقول إن أسفل الكنيسة هناك كنز مدفون الكل يعلم به، وأن النصارى يحفرون وسيجدون الكنز، وهو كنز خاص بالنجع كله وليس النصارى وحدهم، وكان الكل يضحك من كلامه، لكنه وبرغم جنونه اللحظي فقد كان عارفا بكل تفاصيل الأسر الفرعونية، وهو الوحيد الذي يعرف المبلغ الحقيقي الذي يستحقه الخنجر، مشيت إلى بيتي وقلت أذهب إليه في الغد فربما يعطيني سعر أكبر، علقت الخنجر، صعدت إلى سطح بيت أمي "مارية"، الجبل يبدو بديعا من هنا والقمر استهل رحلته من وراء الجبل منيرا ورائعا، جلست قليلا فوق السطح في الظلمة، جاءتني الطرقات على باب البيت، قلت هي "ماتيلدا"، رأيت أحدهم وهو يشير إلى بيت "سليم"، أخوك عاوزك، جلست على المصطبة الخارجية فجاء "سليم" يجر وراءه أربعة من أصحاب الذقون والجلاليب القصيرة والسراويل الطويلة، كيف عرف أني رجعت إلى بيت أمي مارية؟.

-عبدالله، طبعا أنت ترى بيتي الآن، وبيتك متهدم وغير صالح للسكنى، ونعرف تماما أنك لن تقدر على بناء البيت، وأنا جئت إليك أريد شراءه، وسأدفع فيه ما يستحقه كأنني لست أخاك، ما يدفعه الغريب سأدفعه أنا بالضبط، هه ما رأيك؟.

-جميل يا سليم، ولكن من قال لك إنني أحب بيع بيتي؟.

fb/mashro3pdf

-كيف لا تبيع البيت وأنت لا تستخدمه حتى، أنت تسكن في بيت مسيحي والله أعلم هل أنت قادر على دفع الإيجار فيه أم لا، أملك قرشا ينفعك إذا ما ضاقت الدنيا عليك، أنا أخوك وأحب مصلحتك بالتأكيد، بدلا من أن تمد يدك للذي يساوي والذي لا يساوي.

-طيب أنا عارف من يساوي، هل تعرف أنت من الذي لا يساوي؟

-هذا ليس سياق كلامنا يا عبدالله، هاه ما رأيك فكر وقل لي رأيك النهائي، وبالتأكيد المبلغ الذي سوف تحصل عليه سيضمن لك أن تدفع إيجارك وربما تفكر في مشروع ما يناسبك بدلا من أن تعيش كعالة على الناس.

- لن أبيع بيتى يا سليم.

- سيصبح ملكى بطرق أخرى يا عبدالله.

-كيف هي الطرق الاخرى؟

نظر إليَّ وهو يضغط على أسنانه بقوة، وحاول أن تكون كلماته قاسية إلى أقصى حد ممكن.

-بما وصل إلى دماغك الآن يا عبدالله.

مشى هو وجماعته، خطوتين ووقف والتفت إليَّ ساخرا:

-صحيح كدت أنسى. نورا تسلم عليك.

وضحك ضحكة مقيتة وعفنة وأصحابه يضحكون لضحكته.

fb/mashro3pdf

مشي هو وجماعته ولم أعرف قصده من "سيصبح ملكي بطرق أخرى"، لكنه أخي، يعلم الله أني أحبه، حقيقي هو آذاني لكني أحبه، وأكره "نورا" التي أوقعت بيننا وباتت سببا لانفصام أخوتنا.

فكرت كثيرًا في أن أقوم باكرا، وأنقل السرير النحاسي إلى بيتي الجديد، كم أفتقد العامود النحاسي، دخلت إلى البيت، ثوان وسمعت طرقات أخرى على الباب، فتحت لأجد العم ميشيل، دعوته للدخول فأبى.

-هل أغضبك أحد يا عبدالله؟.. هل قصرنا معك؟.

-لا يا عم ميشيل.. من قال هذا الكلام؟

-لماذا تركتنا يا ولدي، أبعد أن سكنت قاوبنا، تمشي من غير حتى أن تسلم علينا.

-اعذرنى يا عم ميشيل، أنا هنا مرتاح.

-كما تحب، لكن تذكر أن لك بيتًا آخر، في أي وقت تحب المجيء تعال.

أومأت برأسى إيجابًا، استدار والتفت لي مرة أخرى.

-عندك حق في موضوع اللون يا عبدالله، هو اللون الملعون كان السبب في تعبي، شكرا لك يا ولدي.

-لا شكر على واجب يا عم ميشيل.

واستدار ومنح نفسه للطريق في اتجاه العربات الكبود.

fb/mashro3pdf

١٨

استيقظت متأخرا على طرقات على الباب، فتحت لأجد ولد صغير من شرق النجع

-عم بستاني يريدك لأمر مهم ويقول لك أحضر المصلحة معك.

- حاضر قل له إنه في الطريق إليك.

لبست وخرجت، سأرفض سعره مرة أخرى وسيأتيني مرة ثالثة ورابعة، جشعه يمنعه من أن يقول سعرًا حقيقيًا ليوفر لنفسه أرباح كثيرة حين يبيع الخنجر للأجانب، وصلت شرق النجع فوجدت مسيحيين كثيرين يمسكون بالفئوس والكواريك، كانوا يهدمون الكنيسة القديمة تمهيدا لبنائها من جديد، أمام المسجد كان هناك جماعة من أصحاب الذقون والجلاليب البيضاء والسروايل الطويلة، أبناء الكنيسة توقفوا عن الهدم حين مررت من أمامهم وسرت باتجاه بيت العم "بستاني"، دخلت إلى بيته، كان جالسا وحده في حجرة الضيوف، وقف وسلم عليَّ:

fb/mashro3pdf

-أين المصلحة؟

سحبت الخنجر من السروال وسلته من جرابه ورفعته قدام وجهه الذي لمع ببريق غريب.

-اجلس أولا ولنشرب الشاى ونتكلم بهدوء.

ثوان وخرج أحد أبنائه وهو يحمل كوبين من الشاي.

-سأعطيك ثلاثة آلاف جنيه في الخنجر يا عبد الله، وصدقني، لا يحتمل أكثر من هذا، وضع في اعتبارك أني أيضا أحب أن أتربح من وراء عملية البيع هذه وإلا فلماذا أشتري؟

جاءنا ذلك الهرج والمرج والصراخ الذي انتقل بقوة مرعبة، جرينا إلى الخارج كانت هناك معركة كبيرة، وصفي كان بجلبابه الأبيض وهو يمسك بمطواة "قرن غزال" وأمامه مسلمون كثيرون واقفين معارضين لهدم الكنيسة.

-الكنيسة ستبني على المكان الذي كانت تحتله قديما وأي زيادة لن تحدث، لأن الزيادة من حق المسجد وأنت وكلكم تعلمون هذا.

"سليم" قال هذا الكلام لـ "وصفي".

-هذه أرض فضاء ليست ملكا لأحد، وحين تأتي الحكومة ستقول القول الفصل في هذا الامر، ولكن ما دامت الأرض براح فلن تقدر أنت ولا أي أحد على جعلنا نخافكم أو نتراجع عن بنائها من جديد، والمكان الذي تضع به رأسك، ضع به قدميك.

fb/mashro3pdf

ساد الهرج أكثر وصراخ النسوة ملأ الفضاء، لمحت "ماتيلدا"، كانت تجري وهي مرعوبة، جريت ممسكا بخنجري خلفها، كانت الجموع قد اشتبكت، صرخت أختي "ماتيلدا"، غصت وراءها حيث اختفت وسط الجموع، وقفت حين وجدت النصل الحاد يغوص بجنبي، التفتُّ لأجد "وصفي" ممسكا بمطواة عليها دمي، "وصفي" جرى هاربا.

- حاولت أن أقول له لماذا يا وصفي ..أنت زوج أختي.

أمسكت جنبي بيدي اليسرى، واليمنى تمسك خنجري الصغير في جرابه، والألم كان عظيما

قمت ومشيت باتجاه "سليم" الذي أراه، لن أقول له على "وصفي"، ولن أقول لـ "ماتيلدا" أيضا، سأسامحه كي لا يزيد الشحن بين عالمين كلاهما لي، اقتربت من "سليم" وأنا أشير لدمي الذي يسيل، أمسك سليم خنجري من يدى، نظر فيه قليلا ونظر إلى العالم من حوله، كلهم مشغولون بالعراك بالأيدي، الغبار يتصاعد ليغمم الرؤية، الآهات تندفع بقوه من الحناجر وبعضهم جرح بعضهم بالمطاوي والسنج، أخرج أخي الخنجر من جرابه وجز على أسنانه بقوة، وأعاد الخنجر إلى جسدي، انغرز حتى مقبضه في بطنى، وقعت وآلاف الشرارت المؤلمة تتصاعد إلى رأسي، الدنيا تدور، أمسكت بجلباب أخي القصير ووقعت، صرخت بقوة والألم يقتلني، المسيحيون كلهم تركوا ما بأيديهم، والمسلمون تركوا ما بأيديهم، الكل ابتعد عن الدائرة التي تحويني أنا و"سليم"، جاءت "ماتيلدا" ودخلت معنا في الدائرة، جلست وسحبتني على صدرها، الدنيا تلف من حولى، وجدت "وصفي" قد جاء ودخل رابعًا

fb/mashro3pdf

في الدائرة، أخفضي صرخاتك يا "ماتيلدا"، علام تبكين يا أختاه، أخفضي صرخاتك، إنك تشوشين على رؤيتي يا حبيبتى، نظرت إليها وأنا أبتسم، ورأيت السماء تلونت بالأبيض الناصع، وأبي هناك، نعم هو أبي، وأشرت، وقلت أبي يا "ماتيلدا"، وكان بجواره أناس كثيرون بأردية بيضاء ناصعة ويرفرفون بأجنحة بديعة، وأمامه كانت أمي "مارية"، أمي يا "ماتيلدا"، و"ماتيلدا" تبكى بقوة وتسقط الحمم على وجهي، أمي "مارية" أيضًا من حولها بنات كثيرات بنفس الأردية البيضاء الناصعة، إنهم هناك يا حبيبتى، نظرت "ماتيلدا" إلى السماء وعادت حُبلي بالدمع، زوج أختي "وصفي" وأخي "سليم" يجثوان على ركبتيهما يبكيان وكل منهما دفن رأسه بين راحتيه، فتح أبي ذراعيه وفتحت أمي ذراعيها، ورأيتني أنسل من جسدى الصغير وأصير أبيضَ مثلهم تماما، نزلوا واقتربوا مني، لا لم يقتربوا أنا الذي كنت أصعد إليهم، وكان آخر ما رأيته وجه "ماتيلدا".

fb/mashro3pdf

شكر خاص

الشاعر والصحفى ..السيد العديسى

الروائي .. محمود حسانين

الروائي..أحمد جاد الكريم

الروائي..ناصر خليل

الروائي ..بستانى النداف

fb/mashro3pdf

المؤلف في سطور

إيهاب مصطفى

جاصل على بكالوريوس إعلام جامعة القاهرة.

يعمل بالصحافة.

نُشرت له مجموعة قصصية "كما يليق بمجنون" عن دار الحضارة للنشر والتوزيع.

نُشرت له قصص بمعظم الدوريات الثقافية المصرية والعربية مثل الثقافة الجديدة وأخبار الأدب ومجلة المجلة، والأهـرام الإسبوعي، والأهـرام المسائي والجمهورية والمساء الادبي ومجلة دبى الثقافية ومجلة الرافد.

للتواصل مع المؤلف

Ehab.mostafa508@yahoo.com

أو على موقع التواصل الإجتماعى فيس بوك

https://www.facebook.com/ehab.mostafa.56

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

fb/mashro3pdf

إلى أين المسير يا "عبدالله"؟

كل بطن تلفظك كطعام مسموم، إلى أين وأنت مشرد ما بين أخ مسلم وأخت مسيحية وعالم لا يعترف بك؟ خلقت وحيدا وعشت وحيدا، وحين فتحت الفرحة ذراعيها باتجاه الأم والأخت، أغلقتها عليك باتجاه الأخ والحبيبة، ما الذي يجرى في هذا العالم؟ ولماذا لا يكونون مثلي؟ ولماذا لا يحبونني مثلما أحبهم؟ ولماذا يحدث لي ما يحدث من أقرب الناس لقلبي؟ رفعت طرفي باتجاه السماء، كنت أود مخاطبة الله في عليائه: "دعوتك يارب أن تجعلني محبًا للعالم برغم قسوته، ونسيت يارب أن أدعوك أن تجعل العالم يحبني أيضا، ودعوتك يا رحيم أن تجعل احتمالي أكبر من عجزي، وجعلت عجزي أكبر من احتمالي . أكان لزاما عليّ يارب أن أولد وأنا مكروه، وأن أعيش وأنا ملقى بين عالمين كلاهما يرفضني ،

وأن أكون لعنة وأصاب أنا بها...

9 789777 790673

تصميم الغلاف: مروة فتحي

fb/mashro3pdf